الفرار إلى الله

تأليف

محمد شومان الرملي

دار ابن عفان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله؛ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

أما بعد؛ فهٰذا كتاب «**الفرار إلى الله تعالى**»؛ اقتبست اسمه من قوله عز وجل:

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾(٤).

ولا بد قبل الشروع في المقصود من بيان معنى (الفرار إلى الله تعالى)،

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الأحزاب: ٧٠ و٧١.

(٤) الذاريات: ٥٠.

فقال الطبري(١) في قوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾: فاهربوا أيها الناس! من عقاب الله إلى رحمته؛ بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته.

وقال البغوي(٢): فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه؛ بالإيمان والطاعة.

وقال ابن الجوزي(٣): ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾؛ بالتوبة من ذنوبكم، والمعنى: اهـربوا مما يوجب العقاب؛ من الكفر والعصيان، إلى ما يوجب الثواب؛ من الطاعة والإيمان.

وقال البيضاوي(٤): ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾؛ من عقابه؛ بالإيمان والتوحيد، وملازمة الطاعة.

وقال ابن جزي(٥): أمر بالرجوع إليه بالتوبة والطاعة، وفي اللفظ تحذير وترهيب اهـ.

وهٰذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى واحد، وهو أن «الفرار إلى الله» هو: الفرار من المعصية إلى الطاعة؛ أي: الفرار من أسباب غضب الله تعالى إلى أسباب رحمته. والمراد منه: الفرار من غضب الله عز وجل وما يترتب عليه من العقوبة، إلى رحمته وما يترتب عليها من المعافاة، فعاد المعنى إلى: الفرار منه إليه سبحانه.

وفي هٰذا المعنى دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ! أَعُوذُ برِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ

(١) «جامع البيان» (٢٧ / ٧).

(٢) «معالم التنزيل» (٥ / ٢٢٩).

(٣) «زاد المسير» (٨ / ٤١).

(٤) «أنوار التنزيل» (٢ / ٤٣١).

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» (ص ٧١٧).

عَلَى نَفْسِكَ»[1].

ثم وجدت ابن عطية في «تفسيره»[2] قد نبه إلى مثل هٰذا؛ فإنه قال: قوله: ﴿فَفِرُّوا﴾؛ أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله، وجعل الأمر بذٰلك بلفظ «الفرار»؛ لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً وأمراً؛ حقه أن يفر منه؛ فجمعت لفظة «ففروا» بين التحذير والاستدعاء، وينظر إلى هٰذا المعنى قول النبي ﷺ: «لا مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ» الحديث[3].

قال في «البحر المحيط»[4]: وهو تفسير حسن.

قال ابن القيم[5]: فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة «الرضا» من صفة «السخط»، وبفعل «المعافاة» من فعل «العقوبة»، فالأول: للصفة، والثاني: لأثرها المترتب عليها. ثم ربط ذٰلك كله بذاته سبحانه، وأن ذٰلك كله راجع إليه وحده؛ لا إلى غيره، فما أعوذ منه؛ واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به؛ من رضاك ومعافاتك؛ هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه.

فإعاذتي مما أكره وأحذر، ومنعه أن يحل بي؛ هو بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه بقضائك ومشيئتك؛ فعياذي بك منك: عياذي بحولك وقوتك وقدرتك ورحمتك وإحسانك؛ مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك

---

(1) أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

(2) (١٥ / ٢٢٢).

(3) جاء هٰذا اللفظ في مواطن من السنة؛ منها في الدعاء عند النوم وأخذ المضجع، وهو في «الصحيحين»؛ «صحيح البخاري» (١ / ٣٥٧ - فتح) وفي مواضع أخر، و«صحيح مسلم» (٢٧١٠).

(4) (٩ / ٥٦٠).

(5) «مدارج السالكين» (١ / ٢٥٤).

وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك، بل هو منك، ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك، بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك؛ فأعوذ بك منك.

ولا يعلم ما في هٰذه الكلمات ـ من التوحيد والمعارف والعبودية ـ إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته اهـ.

وقال في «منزلة الفرار»[1]: حقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء. ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه؛ لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه؛ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**﴾: فروا منه إليه، واعملوا بطاعته اهـ.

وفي معنى «الفرار إلى الله تعالى» قال السعدي[2]: أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً؛ فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر. فمن استكمل هٰذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية المطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً؛ لأن في الرجوع إلى غيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز؛ فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه؛ إلا الله تعالى؛ فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٤٦٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ١٠٢).

فيا من أُمِر بالفِرار إلى مولاه ولم يجب! ويا من نُوديَ عليه بالتوبة ولم ينب! ستندم حين لا ينفع الندم، وتبكي الدَّم حين تزل القدم.

يا من قصَّر في الواجبات! وأصرّ على المحرمات! وسَدَرَ في الغفلات! ألا تستعد قبل الممات؟ ألا تتزود قبل الفوات؟ أم لك احتيال في دفع الموت وسكراته؟ أو لك احتمال لتجرع الفوت وحسراته؟

هلاّ توبة وأوبة قبل انقضاء الأمر؟ هلاّ عِبرة وعَبرة قبل نزول القبر؟

أما آن لقلبك أن يخشع ويتوب؟ أما آن لنفسك أن ترعوي وتثوب؟ ومولاك ـ تبارك اسمه وتعالى جده ـ يرغبك في خشوع قلبك، ويحذرك من طول أملك، ويرهبك من عاقبة ذنبك، ويقول:

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1].

قال القاسمي[2]: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾؛ أي: ألم يحن، من أَنَى الأمر، يَأْنى؛ إذا جاء إناه؛ أي: وقته.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾؛ أي: أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم، وما يوجبه من الوجل منه والخشية.

وقال الشنقيطي[3]: الخشوع في الشرع: خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون؛ كما هو شأن الخائف اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾؛ يعني: القرآن الكريم. قال أبو

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) «محاسن التأويل» (١٦ / ٤٥).

(٣) «أضواء البيان» (٧ / ٨١٢).

السعود[1]: ومعنى الخشوع له: الانقياد التام لأوامره ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام اهـ.

وفي هٰذا الكتاب - إن شاء الله - إيقاظ للغافل، وتنبيه للجاهل، وشحذ للهمم، وعون لكل من عزم على الفرار إلى مولاه جل وعلا، وقد توجته بالآيات البينات؛ المرغبات منها والزاجرات، والأحاديث الشريفات الصحيحات، وأكثرت فيه من المواعظ المرققات؛ مما يلين القلب، ويدمع العين، ويحمل على الطاعة، ويزجر عن المعصية، والتوفيق مَحْض منة الرب جل وعلا، والزلل والتقصير من نفسي ومن الشيطان.

ولما كان معنى «الفرار إلى الله تعالى» ما قدمت؛ كانت أبواب هٰذا الكتاب مرتبة - بعد هٰذه المقدمة - كما يلي:

الباب الأول: في الأمر بتقوى الله تعالى، والتحذير من معصيته.

وفيه بيان وجوب التقوى، ومعناها، وحَدّها، ومراتبها، وبيان شرفها، وأنها خير الزاد، وبيان فضائلها وثمراتها.

وفيه التحذير من الذنوب؛ صغائرها وكبائرها، وبيان عواقبها، والتحذير من البدع، وبيان مستطير شرها.

الباب الثاني: في التوبة إلى الله تعالى.

وفيه بيان وجوب التوبة على الفور والدوام، ومعناها، وأنواعها، وشروطها، وعلامات صحتها، والفرق بينها وبين الاستغفار.

وفيه بيان ما يعين على التوبة، وفوائد أخرى كثيرة.

---

(١) «إرشاد العقل السليم» (٥ / ٦٨٦).

الباب الثالث: فيما يعيق عن الفرار إلى الله تعالى.

وهو أهم أبواب الكتاب، وفيه بيان ما يعين على التغلب على الشيطان، والنفس الأمّارة، وفتنة الدنيا، وخلطاء السوء، وهي العوائق الأربعة في طريق التائب الفارّ إلى الله عز وجل.

هٰذا؛ وفي الكتاب فوائد كثيرة، وتنبيهات جليلة، ونِكات لطيفة؛ بالإضافة إلى ما ذكرته آنفاً.

فالله الكريم أسأل؛ أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به والناظرين فيه، وأن يتقبله مني قبولاً حسناً، وأن يجعله زيادة في حسناتي؛ إنه هو السميع العليم.

وكتب

محمد شومان

عمّان ـ ١٤٠٩هـ

* * * * *

الباب الأول

في الأمر بتقوى الله تعالى والتحذير من معصيته

فصل
في الأمر بتقوى الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

وهٰذا الأمر بتقوى الله تعالى بمعنى قوله تعالى:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٢).

وهذا ليس ناسخاً للأول؛ بل مثله.

قال أبو محمد القيسي(٣): وأكثر العلماء على أنه محكم، لا نسخ فيه(٤)؛ لأن الأمر بتقوى الله لا ينسخ، والآيتان ترجعان إلى معنى واحد.

قال أبو محمد: وهٰذا القول حسن؛ لأن معنى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾:

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) التغابن: ١٦.

(٣) «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» (٢٠٣ ـ ٢٠٤). وانظر: «زاد المعاد» (٣ / ٨).

(٤) وهٰذا هو الصواب الذي لا ريب فيه، ويؤيده افتتاح النبي ﷺ خطبة الحاجة بها بعد قوله: «إن الحمد لله نحمده... إلخ»، ثم بآيتين محكمتين تأمران بالتقوى، ولو كانت منسوخة لما قدمها على الآيتين المشار إليهما، ولعدل عنها إلى الناسخة أو غيرها، أو قرنها بها؛ لإظهار المراد منها، والله أعلم.

اتقوه بغاية الطاقة، فهو قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ إذ لا جائز أن يكلف الله أحداً ما لا يطيق، وتقوى الله بغاية الطاقة واجب فرض لا يجوز نسخه؛ لأن في نسخه إجازة التقصير من الطاقة في التقوى، وهٰذا لا يجوز.

وقد قال قتادة والسدي وطاووس: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر[1].

قال أبو محمد: ولا يجوز نسخ شيء من هٰذا اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[7].

قال ابن رجب[8]: فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في

---

(١) وجاء هٰذا من قول ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صححه ابن كثير في «تفسيره» (١ / ٣٨٧).

(٢) التوبة: ١١٩.

(٣) البقرة: ١٩٦.

(٤) البقرة: ٢٢٣.

(٥) المائدة: ٧.

(٦) آل عمران: ٢٨ و٣٠.

(٧) المدثر: ٥٦.

(٨) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٤٨).

صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش، وشدة البأس.

فصل

في أن التقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين

والتقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(1).

وقد بلغت الرسل عليهم الصلاة والسلام هذه الوصية العظمى لأقوامهم، وذلك قياماً بحق الله تعالى عليهم من التبليغ والإنذار؛ فقال الله جل وعلا عن نوح عليه الصلاة والسلام:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(2).

وعن هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(3).

وعن صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(4).

وعن لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(5).

---

(1) النساء: ١٣١.

(2) الشعراء: ١٠٦ ـ ١٠٨.

(3) الشعراء: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(4) الشعراء: ١٤٢ ـ ١٤٤.

(5) الشعراء: ١٦١ ـ ١٦٣.

وعن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١).

وعن إلياس عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(٢).

وعلى لسان عيسى عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٣).

وعن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾(٤).

وأما سيد الخلق محمد ﷺ؛ فقد بلغ وصية الله تعالى للعالم كله؛ إنسه وجنه، وذٰلك بأن بلغ الشاهد وأمره بتبليغ الغائب، فبلغ ﷺ كتاب الله تعالى، وما فيه من الأمر بتقوى الله عز وجل، وكذا بلغ من قوله - وهو الوحي الثاني -؛ فمن ذٰلك ما رواه العرباض بن سارية؛ قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هٰذه موعظة مودع، فبما تعهد إلينا يا رسول الله! قال:

«أُوْصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ» الحديث(٥).

---

(١) الشعراء: ١٧٧ - ١٧٩.

(٢) الصافات: ١٢٣ و١٢٤.

(٣) آل عمران: ٥٠.

(٤) العنكبوت: ١٦.

(٥) أخرجه الدارمي (١ / ٤٤ - ٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢ و٤٣ و٤٤)، والحاكم (١ / ٩٥ - ٩٧)، وقال: صحيح ليس له علة، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان (١ / ١٠٤ - إحسان)، وأحمد (٤ / ١٢٦ و١٢٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١٨١ - ١٨٢)، وغيرهم. وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يَخْطُب في حَجَّة الوداع فقال:

«اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وأَطِيعُوا ذا أَمْرِكُمْ؛ تَدْخُلوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(١).

ووصَّى أبا سعيد الخدري رضي الله عنه ـ والوصية لسائر الأمة ـ؛ فقال له:

«أُوصيكَ بِتَقْوى اللهِ تَعالى؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ» الحديث(٢).

ووصَّى أبا ذر رضي الله عنه؛ فقال له:

«أُوْصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ تَعالى فِي سِرِّ أَمْرِكَ وعَلاَنِيَتِهِ، وإِذَا أَسَأْتَ؛ فَأَحْسِنْ» الحديث(٣).

وقال له: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٧٩٥ ـ موارد)، والحاكم (١ / ٩ و٣٨٩)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٥٥١)، وأخرجه أحمد (٥ / ٢٥١ و٢٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣ / ٨٢) وغيره، وحسنه الألباني لغيره في «الصحيحة» (رقم ٥٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٥ / ١٨١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٢٥٤١).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (١ / ٥٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه الدارمي (٢ / ٣٢٣)، وأحمد (٥ / ١٥٣ و١٥٨ و١٧٧) وغيرهما، وحسنه الألباني في «المشكاة» (رقم ٥٠٨٣).

فصل

في بيان معنى التقوى وحقيقتها ومراتبها

قال ابن رجب[1]: أصل «التقوى»: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه؛ فتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه؛ من غضبه وسخطه وعقابه؛ وقايةً تقيه من ذٰلك، وهي فعل طاعته واجتناب معاصيه.

وقال[2]: أصل «التقوى»: أن يعلم العبد ما يتقي، ثم يتقي.

وقال ابن القيم[3]: أما «التقوى»؛ فحقيقتها: العمل بطاعة الله؛ إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً؛ فيفعل ما أمر الله به؛ إيماناً بالأمر، وتصديقاً بوعده، ويترك ما نهى الله عنه؛ إيماناً بالنهي، وخوفاً من وعيده؛ كما قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة؛ فأطفئوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك المعصية على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وهٰذا من أحسن ما قيل في حد التقوى؛ فإن كل عامل لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان؛ فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذٰلك، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب اهـ.

(تنبيه): قد تأتي «التقوى» في الشرع بمعنى الخوف وخشية العذاب،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٤٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٠). (٣) «الرسالة التبوكية» (ص ٨).

الموجبة للانكفاف عن المحارم[1]؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: أي: أخلصوا له العبادة والخوف اهـ.

وقد تأتي «التقوى» بمعنى اجتناب النواهي؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[4].

قال الطبري[5]: يعني جل ثناؤه بقوله: **﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾**: وليعن بعضكم أيها المؤمنون! بعضاً على البر؛ وهو العمل بما أمر الله بالعمل به. والتقوى: هو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه.

وقال السعدي[6]: «التقوى» في هٰذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله؛ من الأعمال الظاهرة والباطنة.

قال ابن رجب[7]: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات؛ كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى؛ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى.

وأخذ هٰذا المعنى ابن المعتمر؛ فقال:

---

(١) انظر: «فتاوى شيخ الإسلام» (١٠ / ٦٥٩).

(٢) العنكبوت: ١٦.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٤٠٧).

(٤) المائدة: ٢.

(٥) «جامع البيان» (٦ / ٤٣).

(٦) «تيسير الكريم الرحمن» (١ / ٤٥٢).

(٧) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٠).

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا   وَكَبِيرَهَا فَهْوَ التُّقَى
واصْنَعْ كَماشٍ فَوْقَ أَرْ   ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرى
لا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً   إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصى ا هـ

(تنبيه آخر): تقدم ـ آنفاً ـ أن تقوى العبدِ ربَّه؛ أن يجعل بينه وبين عذابه وعقوبته وقاية تقيه منه؛ فتقوى العبدِ ربَّه، هي نفسها اتقاء عذابه.

وقد تكرر في الكتاب والسنة الأمر باتقاء النار والعذاب، واتقاء يوم القيامة وما فيه من الزلازل والأخطار؛ فمن ذلك قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾(٢).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«اتَّقُوا النَّارَ»، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ»، ثم أعرض وأشاح ـ ثلاثاً ـ، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؛ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(٣).

وأما اتقاء يوم القيامة؛ ففي مثل قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٣١.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٤٠٠ ـ فتح)، وفي مواضع أخر، ومسلم (١٠١٦)، وغيرهما.

(٤) البقرة: ٢٨١.

وأحياناً يأمر الله تعالى بتقواه، وينبه مع ذلك إلى ما في يوم القيامة من الأهوال؛ لأن هٰذا مما يعين على التقوى وييسرها؛ فتفصيل ما يُتقى وبيانه مما يعين على اتقائه؛ كما قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾(1).

وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(2).

قال السعدي(3): يأمر تعالى الناس بتقواه؛ التي هي: امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه؛ **﴿وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾** يزيد في حسناته، ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر لهٰذا اليوم المهول؛ مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهٰذا من رحمة الله بالعباد؛ يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين!

---

(1) الحج: 1 و2.

(2) لقمان: 33.

(3) «التيسير» (4 / 118).

فصل

ويدخل في التقوى الكاملة ـ كما قال ابن رجب[1] ـ فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، ولربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات؛ وهي أعلى درجات التقوى.

وقال ابن القيم[2]: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حميتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

فصل

في أن التقوى خير الزاد

وتقوى الله عز وجل خير ما أعده العبد لآخرته، ونجاته وفلاحه بالتزود منها في سفره للقاء مولاه، قال جلَّ وعلا:

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

---

(١) «جامع العلوم» (ص ١٤٩).

(٢) «الفوائد» (ص ٤٦).

(٣) البقرة: ١٩٧.

قال السعدي(١): أمر تعالى بالتزود لهٰذا السفر المبارك(٢)، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم. وهٰذا الزاد ـ الذي المراد منه إقامة البنية ـ بلغة ومتاع، وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه؛ فهو زاد التقوى، الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً، ومن ترك هٰذا الزاد فهو المنقطَع به، الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهٰذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الألباب؛ فقال: ﴿واتَّقُونِ يا أُولِي الألبابِ﴾؛ أي: يا أهل العقول الرزينة! اتقوا ربكم، الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي اهـ.

قال القاسمي(٣): ﴿واتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبَابِ﴾؛ أي: اتقوا عقابي وعذابي في مخالفتي وعصياني يا ذوي العقول والأفهام! فإن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء؛ فكأنه لا لب له؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(٤) اهـ.

ويشبه قولُه تعالى هذا؛ قولَه سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾(٥).

قال القاسمي(٣): لما ذكر اللباس الحسّيّ؛ نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي؛ وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هٰذا وأنفع اهـ.

---

(١) «التيسير» (١ / ١٥٨).

(٢) يعني: الحج.

(٣) «محاسن التأويل» (٣ / ١٥٥).

(٤) الأعراف: ١٧٩.

(٥) الأعراف: ٢٦.

وقال الشاعر[1]:

كَيْفَ الـرَّحِـيلُ بِلاَ زَادٍ إِلَى وَطَنٍ ... مَا يَنْـفَـعُ الـمَـرْءُ فِيهِ غَيْرُ تَقْـواهُ
مَنْ لَمْ يَكُـنْ زَادُهُ التَّقْـوَى فَلَيْسَ لَهُ ... يَوْمَ الـقِـيَامَـةِ عُذْرٌ عِنْـدَ مَوْلاَهُ

وقال غيره [2]:

صُرُوفُ الحَتْفِ مُتْـرَعَـةُ الكُؤوسِ ... تَدُورُ عَلَى الـرَّعَـايا وَالـرُّؤوسِ
فَلاَ تَتْـبَـعْ هَواكَ فَكُـلُّ شَخْصٍ ... يَصِـيرُ إِلَـى بِلىً وَإِلَـى دُرُوسِ
وَخَـفْ مِنْ هَوْلِ يَوْمٍ قَمْـطَرِيرٍ ... مَخُـوفٍ شَرُّهُ ضَنْـكٍ عَبُـوسِ [3]
فَمَـا لَكَ غَيْرُ تَقْـوَى الـلهِ زَاداً ... وفِـعْـلُكَ حِينَ تُقْبَـرُ مِنْ أَنِـيسِ

وفي المدهش [4]: أيها المقصر عن طلب الزاد! كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين أهل السهر من أهل الرقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رحل المتيقظون مستظهرين بكثرة الزاد، كل جواد لهم يعرف الجواد.

وفيه [5]: إخواني! سار المتقون ورجعنا، ووصلوا وانقطعنا، وأجابوا الداعي وامتنعنا، ونجو من الأشراك ووقعنا، تعالوا ننظر في آثارهم، وندرس دارس أخبارهم، ونبكي على التفريط ما نابنا، ونندب ما لحقنا وأصابنا.

---

(١) «المدهش» (ص ٥٤١).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٩٩).

(٣) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ [الإنسان: ١٠].
و (العبوس): الضيق، و (القمطرير): الطويل؛ كما في «تفسير ابن كثير» (٤ / ٤٥٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) (ص ٤٣٠).

(٥) (ص ٤٢٢).

وفيه[1]: لله در أقوام علموا قرب الرحيل؛ فهيئوا آلة السفر، وهوّنوا بالدنيا؛ فقنعوا منها بما حضر، واستوثقوا بقفل التقوى من أذى النطق والنظر، ما لك خبر بحالهم، ولا عندك منهم خبر، قاموا في الجِد وقعدت، وسهروا في الدجى ورقدت.

وفي «التبصرة»[2]:

عَلَيْكَ بمَا يُفِيدُكَ فِي المَعَادِ ... وَمَا تَنْجُو بِهِ يَوْمَ التَّنَادِ
فَمَا لَكَ لَيْس يَنْفَعُ فِيكَ وَعْظٌ ... ولا زَجْرٌ كَأَنَّكَ مِنْ جَمَادِ
سَتَنْدَمُ إِنْ رَحَلْتَ بغَيْرِ زَادٍ ... وَتَشْقَى إِذْ يُنَادِيكَ المُنَادِي
فَلَا تَفْرَحْ بمَالٍ تَقْتَنِيهِ ... فَإِنَّكَ فِيهِ مَعْكُوسُ المُرَادِ
وَتُبْ مِمَّا جَنَيْتَ وَأَنْتَ حَيٌّ ... وَكُنْ مُتَنَبِّهاً مِنْ ذَا الرُّقَادِ

وقال ابن القيم[3]: اشتر نفسك اليوم؛ فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ﴿**ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾، ﴿**يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ**﴾.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وأَبْصَرْتَ يَوْمَ الحَشْرِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ على أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدا

وقال بعض الحكماء: يا أخي! فإني أحذرك ونفسي مقاماً عَنَتْ فيه الوجوه، وخشعت فيه الأصوات، وذلّ فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين، وقد جمعهم الواحد القهار؛ الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشاركَ في حكمه،

---

(1) (ص ٥١٠).

(2) (١ / ٢٨٥).

(3) «الفوائد» (ص ٦٤).

جمعهم بعد طول البِلى للفصل والقضاء، في يومٍ آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر؛ بأي بدن تقف بين يديه، وأعِدَّ للسؤالِ جواباً، وللجواب صواباً، فإنه لا يصدِّق إلا الصادقين، ولا يكَذِّب إلا الكاذبين، فليكن أول ما تبدأ به من العُدَّة لذٰلك المقام؛ تقوى الله عز وجل في السر والعلانية؛ ليأمن قلبك في ذٰلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور.

* * * * *

فصل

في فضائل التقوى

جاءت مادة التقوى في القرآن المجيد؛ أمراً بها، وتعظيماً لشأنها، وذكراً لفضلها، ووصفاً لأهلها، وبياناً لعاقبتهم في الدنيا والآخرة؛ أكثر من مئتي مرة، فلتقوى الله جل وعلا فضائل كثيرة، ومنافع جسيمة، وثمرات عظيمة، وما من خير إلا بها ومنها، وأذكر هنا على سبيل الإشارة والاختصار بعض فضائلها.

فمن ذلك: أنها سبب محبة الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

فيا فوز من نال محبة الحق جل وعلا! ويا عظيم سعادته في الدنيا والآخرة! ولله تلك القلوب التقية، ولله ما فازت به من محبة الولي الودود، ولله تعالى ما هم فيه من خير ولذة، وسرور ونعمة؛ لا يدرك كنهها إلا من بيده الخير كله؛ فهو ولي المتقين، وأكرم الأكرمين، الذي وفق عباده لتقواه، ثم أحبهم عليها، فيا الله ما أعظم كرمه! وما أجل نعمته! وما أكثر عطاياها! نسأله أن يرزقنا التقوى؛ لنحظى بشرف محبته، ونفوز بنعيم قربه، فنسعد سعادة لا نشقى بعدها أبداً.

ومنها: أن التقوى سبب رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى:

---

(١) التوبة: ٤ و٧.

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ. . . ﴾ الآية[1].

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2].

ومنها: أنها سبب لعون الله تعالى ونصره وتأييده، وكل ما تقتضيه معية الله تعالى الخاصة لعبده المتقي، والمرادة بمثل قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

فمن كان الله معه فلا حاجة له في أحد، ومن كان الله معه فهو السعيد حقاً، وهو المرحوم والمغني والفائز، فلا خوف عليه والله! ولا حزن ولا هم ولا غم، وبحسب تقواه يكون عون الله تعالى له، ونصره إياه.

ومنها: أن التقوى سبب التوفيق لخيري الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[5].

ومنها: أن التقوى حصن الخائف، وأمانه من كل ما يخاف ويحذر؛ من سوء ومكروه في الدنيا والآخرة؛ فلا خوف على المتقي ولا حزن ولا سوء بوجه من الوجوه؛ فإنه قد وصل شاطىء الأمان، راكباً سفينة النجاة؛ قال الله تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[6].

---

(١) الأعراف: ١٥٦.

(٢) الأنعام: ١٥٥.

(٣) النحل: ١٢٨.

(٤) البقرة: ١٩٤.

(٥) الليل: ٥ ـ ٧.

(٦) الأعراف: ٣٥.

وقال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(1).

ومن فضائل التقوى: أنها تبعث في القلب النور وتقوي بصيرته؛ فيميز بين ما ينفعه وما يضره، وهي سبب تكفير السيئات ومغفرة الذنوب؛ التي هي سبب ظلمة القلب وعمى بصيرته ومرضه وهلاكه؛ قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(2).

والتقوى تعطي العبد قوة لغلبة الشيطان؛ فإن الشيطان دائم النزغ والوسوسة لهٰذا العبد الضعيف الذي قويَ بتقواه، التي تذكره بالله تعالى، وتخوفه المقام بين يديه، وتدعوه إلى ترك ما يدعو إليه عدوه، وإن وقع في المخالفة؛ فإن تقواه تدعوه إلى التوبة واستدراك الفارط؛ كما قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(3).

والتقوى وسيلة إلى نيل الأجر العظيم؛ كما قال عز وجل:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾(4).

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(5).

---

(1) الزمر: ٦١.

(2) الأنفال: ٢٩.

(3) الأعراف: ٢٠١.

(4) الطلاق: ٥.

(5) آل عمران: ١٧٥.

والتقوى توسع الرزق، وتفتح مزيد خيرات السماء والأرض، وتخرج المتقي من كل ضيق وشدة من شدائد الدنيا والآخرة، وتيسر أمره بإذن ربه تبارك وتعالى، وكفى بهذا فضلاً؛ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[3].

والتقوى من أعظم الأسباب الجالبة للنصر على الأعداء، ودفع شرهم، ورد كيدهم في نحورهم؛ كما قال جل وعلا:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[5].

قال في «محاسن التأويل»[6]: (مُسَوِّمين) بكسر الواو؛ أي: مُعلِّمين أنفسهم بأداة الحرب، على عادة الفرسان يوم اللقاء ليُعرفوا بها. وقرىء بفتح الواو؛ أي: معلَّمين؛ من قبله تعالى اهـ.

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الطلاق: ٢ و٣.

(٣) الطلاق: ٤.

(٤) آل عمران: ١٢٠.

(٥) آل عمران: ١٢٥.

(٦) (٤ / ٢١٩).

ومن فضائل التقوى: أنها سبب في صلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب والأوزار؛ كما قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾(١).

قال في «تيسير الكريم الرحمٰن»(٢): يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم؛ في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين؛ من قراءة وذكر، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليم، والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه. ومن القول السديد؛ لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد؛ فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تُتقبل به الأعمال؛ كما قال تعالى(٣): ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترَتُّب آثارها عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾؛ التي هي السبب في هلاككم.

فبالتقوى تستقيم الأمور، ويندفع بها كل محذور؛ ولهٰذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ

(١) الأحزاب: ٧٠ و٧١.

(٢) (٤ / ١٧٣).

(٣) على لسان الصالح من ابني آدم، [المائدة: ٢٧].

اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

ومن فضل التقوى: أنها صفة أولياء الله تعالى المنسوبين إليه، وكفى بهذا شرفاً، بالإضافة إلى أنه سبحانه أمّنهم من الخوف والحزن، ووعدهم ببشرى الدنيا والآخرة؛ قال تبارك اسمه:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾(١).

قال في «تيسير الكريم الرحمٰن»(٢): يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم؛ فقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأهوال.

﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم؛ فقال: ﴿الَّذينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدّقوا إيمانهم باستعمال التقوى؛ بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله تعالى ولياً؛ لذلك كانت ﴿لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾؛ أما البشارة في الدنيا؛ فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوىء الأخلاق، وأما الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ

---

(١) يونس: ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) (٢ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]. وفي القبر؛ ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم. وفي الآخرة؛ تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم اهـ.

ويكفي في فضل التقوى وشرفها؛ أن قدر العبد عند الله تعالى يكون بحسب ما حصل منها، فهي الميزان التي يُوزَن بها العبادُ؛ كما قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

قال الطبري[3]: قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛ يقول تعالى ذكره: إن أكرمكم أيها الناس! عند ربكم؛ أشدكم اتقاءً له؛ بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتاً، ولا أكثركم عشيرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال:

«أَتْقَاهُمْ للهِ» الحديث[4].

وعن سمرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«الحَسَبُ: المَالُ، وَالكَرَمُ: التَّقْوَى»[5].

---

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) «جامع البيان» (١١ / ٣٩٩ - ط العلمية).

(٤) أخرجه البخاري (٦ / ٤١٧ - فتح)، وفي مواضع أخر.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٢٧١)، وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٤٢١٩)، وغيرهما. وصححه الألباني لشواهده في «الإرواء» تحت الحديث (رقم ١٨٧٠).

قال المناوي[1]: قيل: أصل (الكرم): كثرة الخير، فلما كان المتقي كثير الخير، كثير العوائد والفوائد في الدنيا، وله الدرجات العلى في العقبى؛ كان أعم الناس كرماً؛ فكأنه لا كرم إلا التقوى اهـ.

وأخيراً؛ فالتقوى هي سبب كل خير في الدنيا والآخرة، وهي ـ لا سواها ـ سبب الفوز بالجنة، وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والنجاة من النار وعذابها الشديد العظيم والأليم العقيم؛ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

---

(١) «فيض القدير» (٣ / ٤١٣).

(٢) الطور: ١٧ و١٨.

(٣) الدخان: ٥١ ـ ٥٧.

(٤) الذاريات: ١٥.

(٥) النبأ: ٣١ ـ ٣٦.

﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾[1].

قال السعدي[2]: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا الملك الديّان، والفوز بقربه.

وفي «محاسن التأويل»[3]: قال الشهاب: في تنكير الاسمين الكريمين[4] إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدري الأفهام كنههما، وأن قربهم منه بمنزلةٍ من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت؛ مما يجل عن البيان، وتكل دونه الأذهان اهـ.

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[6].

بل قد سمّى الله تعالى جنات عدن: «دار المتقين»، فأنعم بهٰذا شرفاً للتقوى وأهلها؛ قال الكريم الرحمٰن:

---

(١) القمر: ٥٥.

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ١٤٦).

(٣) (١٥ / ٢٧٧).

(٤) يعني: اسمَي «المليك» و«المقتدر».

(٥) آل عمران: ١٥.

(٦) آل عمران: ١٣٣.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: «الفَمُ وَالفَرْجُ»[(٢)].

* * * * *

---

(١) النحل: ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وغيرهما. وقال الألباني في «صحيح الترمذي» (٢ / ١٩١): حسن الإسناد. وهو في «الصحيحة» (رقم ٩٧٧).

فصل
في التحذير من المعاصي

تقدم أن التقوى المأمور بها معناها: أن يجعل العبد بينه وبين عقاب الله تعالى وقاية؛ هي فعل الأوامر واجتناب النواهي(١)، فحيثما جاء الأمر بالتقوى منفردة فإنه يتضمن التحذير من المعصية، وكذلك العكس؛ فالتحذير من المعصية فيه تحذير من ترك الطاعة، وهذا ظاهر.

وفي التحذير من المعاصي قال الله تعالى:

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾(٢).

قال السعدي(٣): المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد؛ أي: توقعه في الإثم والحرج؛ من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها؛ فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي

---

(١) وقد تأتي التقوى في الشرع بمعنى اجتناب النواهي؛ كما تقدم.

(٢) الأنعام: ١٢٠.

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٦٣).

القلب والبدن والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف، وكثير من الناس يخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب؛ كالكِبر والعُجْب والرِّياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

قال السعدي[2]: طاعة الله وطاعة رسوله واحدة؛ فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله ورسوله؛ من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك، وهذا الأمر أعم الأوامر؛ فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ظاهر وباطن.

قوله: ﴿**واحْذَرُوا**﴾؛ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين، ﴿**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ**﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه؛ ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ**﴾ اهـ.

قال القاسمي[3]: وفيه تهديد عظيم، ووعيد شديد في حق من خالف وأعرض عن حكم الله وبيانه.

وقال ابن رجب[4]: احذروا الذنوب؛ فإنها مشؤومة، عواقبها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوب المحبة لها سقيمة، السلامة منها غنيمة، والعافية منها

---

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (١ / ٥١٦).

(٣) «محاسن التأويل» (٦ / ٣٦٢).

(٤) «لطائف المعارف» (ص ٧٨).

ليس لها قيمة، والبلية بها ـ لا سيما بعد نزول الشيب ـ داهية عظيمة.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِيَ اللهُ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتى قَوْماً، فَقالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنِي، وإِنِّي أَنا النَّذيرُ العُرْيانُ(٣)، فَالنَّجاءَ النَّجاءَ(٤)، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ، فَأَدْلَجُوا(٥) عَلَى مَهَلِهِمْ(٦)؛ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ؛ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ؛ فَاجْتاحَهُمْ(٧)»(٨).

قال الحافظ(٩): قال الطيبي: شَبَّه ﷺ نفسه بالرجل، وإنذاره بالعذاب القريب؛ بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشبه من أطاعه من أمته ومن

---

(١) البقرة: ٢٣٥.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) (أنا النذير العُريان): خصّ العريان؛ لأنه أبين للعين، وأغرب وأشنع عند البصر، وذٰلك أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عال، فإذا رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه. «نهاية».

(٤) (فالنجاء النجاء)؛ أي: اطلبوا النجاء بأن تسرعوا الهرب، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذٰلك الجيش. «فتح».

(٥) (أدلجوا): أي ساروا أول الليل، أو ساروا الليل كله. «فتح».

(٦) (مَهَلهم): بفتحتين، والمراد به: الهينة والسكون، وبفتح أوله وسكون ثانيه: الإمهال، وليس مراداً هنا. «فتح».

(٧) (اجتاحهم)؛ أي: استأصلهم، من جُحت الشيء، أجوحه، إذا استأصلته، والاسم الجائحة؛ وهي الهلاك. «فتح».

(٨) أخرجه البخاري (١١ / ٣١٦ و١٣ / ٢٥٠ ـ فتح)، ومسلم (٢٢٨٣)، وغيرهما.

(٩) «فتح الباري» (١١ / ٣١٧).

عصاه؛ بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدّقه اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهٰذِهِ الدَّوابُّ الَّتِي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فِيها، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَزَعُهُنَّ(١)، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ(٢) فيها، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ(٣) عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيها»(٤).

قال الحافظ(٥): شبه تهافت أصحاب الشهوات في المعاصي؛ التي تكون سبباً في الوقوع في النار؛ بتهافت الفراش بالوقوع في النار اتباعاً لشهواتها، وشبه ذبّه العصاة عن المعاصي بما حذرهم به وأنذرهم؛ بذب صاحب النار الفراش عنها. وقال عياض: شبه تساقط أهل المعاصي في نار الآخرة؛ بتساقط الفراش في نار الدنيا اهـ.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ قال:

«المُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ: مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عَنْهُ»(٦).

---

(١) (يزعهن)؛ أي: يدفعهن، وفي رواية: «ينزعهن» بزيادة نون. «فتح».

(٢) (يقتحمن)؛ أي: يدخلن، وأصله «القحم»، وهو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت. «فتح».

(٣) (بحجزكم): جمع حجزة، وهي معقد الإزار والسراويل. «نووي».

(٤) أخرجه البخاري (١١ / ٣١٦ - فتح)، ومسلم (٢٢٨٤)، والترمذي (٢٨٧٤)، وأحمد (٢ / ٢٤٤).

(٥) «الفتح» (١١ / ٣١٨).

(٦) أخرجه البخاري (١ / ٥٣ و١١ / ٣١٦ - فتح)، وأبو داود (٢٤٨١)، والنسائي (٨ / ١٠٥)، وأحمد (٢ / ١٦٣) وفي مواضع أخر، وأخرج مسلم (٤٠) معناه من وجه آخر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(١).

قال الحافظ(٢): أي: امتنع، وظاهره أن العموم مستمر؛ لأن إسناد الامتناع إليهم من الدخول؛ مجاز عن الامتناع عن سنته، وهو عصيان الرسول ﷺ.

وقال: وأخرج أحمد والحاكم(٣) من طريق صالح بن كيسان، عن الأعرج، عن أبي هريرة رفعه: «لَتَدْخُلُنَّ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، وَشَرَدَ عَلَى اللهِ شِرادَ البَعِيرِ». وسنده على شرط الشيخين اهـ.

وعن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ أنه قال:

«لأَعْلَمَنَّ أقواماً مِنْ أُمَّتِي؛ يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً». قال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا، جلِّهم لنا؛ أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلٰكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوها»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣ / ٢٤٩ - فتح)، وغيره.

(٢) «فتح الباري» (١٣ / ٢٥٤).

(٣) (١ / ٥٥) وفي الطريق أحمد بن حنبل و (٤ / ٢٤٧)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، والطبراني في «الصغير» (رقم ٦٦٢ - الروض)، وهو في «الصحيحة» (رقم ٥٠٥).

«إِنَّ الْمُؤمِنَ إِذَا أَذْنَبَ؛ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَٰلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(١)]»[(٢)].

* * * * *

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٢ / ٥١٧)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد (٢ / ٢٩٧) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» برقم (١٦٦٦).

فصل

في التحذير من الابتداع في الدين

كل ما تقدم في التحذير من المعاصي، فهو تحذير من الكفر بأنواعه، والبدع بأشكالها، والمعاصي جميعها، ونخصص هنا: التحذير من البدع، بكلمات مختصرة؛ لعظيم خطرها؛ إذ أن صاحبها يظنها قربة، وهٰذا ليس موجوداً في غيرها من المعاصي.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

قال ابن كثير في «تفسيره»[2]: قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ أي: عن أمر رسول الله ﷺ؛ وهو سبيله ومنهاجه، وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذٰلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان؛ كما ثبت في «الصحيحين»[3] وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»؛ أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً؛ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) النور: ٦٣.

(٢) (٤ / ٣٠٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٥ / ٣٠١ - فتح)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٧١٨).

في الدُّنْيَا[1]؛ بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذٰلك اهـ.

وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[2].

وعن عمرو بن زرارة؛ قال: وقف عليّ عبد الله (يعني: ابن مسعود) وأنا أقص، فقال: يا عمرو! لقد ابتدعت بدعة ضلالة، أو إنك لأهدى من محمّد وأصحابه. فلقد رأيتهم تفرقوا عني، حتى رأيت مكاني ما فيه أحد[3].

قال الإمام الشاطبي[4]: فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: أن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه؛ لم يبتدع، ولا استدرك عليها، وقائل هٰذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة؛ فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[5]، فما لم يكن يومئذٍ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً.

وقال ـ أي: الشاطبي ـ: المبتدع معاند للشرع، ومشاق له؛ لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها ـ إلى غير

---

(١) وقال غيره: «في الآخرة». وظاهر اللفظ لا يمنع كون ذٰلك في الدنيا والآخرة.

(٢) هٰذا آخر حديث العرباض بن سارية، وأوله: «أوصيكم بتقوى الله»، وقد تقدم مختصراً في أول هٰذا الباب.

(٣) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ٨٩): رواه الطبراني في «الكبير» بإسنادين أحدهما صحيح. وأثبته الألباني في «صحيح الترغيب» (رقم ٥٩)، وقال: صحيح.

(٤) «الاعتصام» (١ / ٤٩).

(٥) المائدة: ٣.

ذلك ـ؛ لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين، فالمبتدع راد لهٰذا كله، فإنه يزعم أن ثَمَّ طرقاً أُخَر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعين، كأن الشارع يعلم، ونحن أيضاً نعلم، بل ربما يُفهم من استدراكه الطرق على الشارع؛ أنه علم ما لم يعلمه الشارع.

وهٰذا إن كان مقصوداً للمبتدع، فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود؛ فهو ضلال مبين اهـ.

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ حَجَرَ[١] (وفي رواية: حَجَبَ) التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»[٢].

والمقصود من الحديث: حجر التوبة الكونية؛ أي: أنه لا يتوب غالباً، وهٰذا أن صاحب البدعة لا يتصور منه التوبة؛ لأنه يظن أن بدعته قربة إلى الله تعالى وطاعة وخير، فكيف يتوب منها؟! فالتوبة ممنوعة عنه كوناً لهٰذا السبب، لا أنها ممنوعة عنه شرعاً، فلو تاب لتاب الله عليه؛ كسائر الذنوب، مع أنه غالباً لا يتوب، فإنك مهما أقمت له من الأدلة على أن ما هو عليه محدَث، فإنه بعد جهدك الشديد يرد عليك بقوله: ما فيها شيء! فهٰذا وأمثاله يظن أنه مصيب بعمله محسن فيه، فكيف يتوب؟! هٰذا حاصل ما أفادني به شيخنا الألباني حفظه الله تعالى[٣].

وقال ابن القيم[٤]: وأنَّى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها

---

(١) أي: منع، من الحَجْر، وهو المنع.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»؛ كما في «المجمع» (١٠ / ١٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٣٨ و٩٤٥٦ و٩٤٥٧)، وغيرهما. وحسن إسناده المنذري في «الترغيب» (١ / ٨٦)، وهو في «الصحيحة» (رقم ١٦٢٠).

(٣) وانظر ما قاله شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١١ / ٦٨٤).

(٤) «المدارج» (١ / ٣٧٤).

سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهٰذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها؛ إلا بتضلعه من السنة، وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث عنها، والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذٰلك أبداً.

فإن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة، ولا تقوم لها، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد؛ قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة؛ إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس، ولا يُري العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة؛ إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله؛ بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجأ إلى الله، والهجرة إلى رسوله؛ بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته اهـ.

وقال الهرّاس في مقدمته على «السنن والمبتدعات» للشقيري: إنه لا شيء أفسد للدين، وأشد تقويضاً لبنيانه من البدع، فهي تفتك به فتك الذئب بالغنم، وتنخر فيه نخر السوس في الحب، وتسري في كيانه سريان السرطان في الدم، أو النار في الهشيم اهـ.

ولابن القيم:

فَيَا سَاهِياً فِي غَمْرَةِ الجَهْلِ وَالْهَوى ... صَرِيعَ الأمَانِي عَنْ قَرِيبٍ سَتَنْدَمُ
أَفِقْ قَدْ دَنَا الوَقْتُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ ... سِوَى جَنَّةٍ أَوْ حَرِّ نَارٍ تَضَرَّمُ
وبِالسُّنَّةِ الغَرَّاءِ كُنْ مُتَمَسِّكاً ... هِيَ العُرْوَةُ الوُثْقَى الَّتِي لَيْسَ تُفْصَمُ
تَمَسَّكْ بِهَا مَسْكَ البَخِيلِ بِمَالِهِ ... وعَضَّ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ تَسْلَمُ
وَدَعْ عَنْكَ مَا قَدْ أَحْدَثَ النَّاسُ بَعْدَهَا ... فَمَرْتَعُ هَاتِيكَ الحَوَادِثِ أَوْخَمُ

* * * * *

فصل

في التحذير من صغائر الذنوب

اعلم أن كل ما يفعله العباد من خير أو شر، مهما صغر أو كبر، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام حتى يوم القيامة؛ فهو مكتوب مسطور؛ كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ[1] فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۞ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ

---

(١) ﴿أشياعكم﴾: أمثالكم. و﴿مستطر﴾؛ أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم. «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٦٨).

(٢) القمر: ٥١ - ٥٣.

(٣) الكهف: ٤٩.

(٤) الأنبياء: ٤٧.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

وقد حذّر رسول الله ﷺ من صغائر الذنوب، وبين عاقبتها أوضح بيان، ومثل لإهلاكها العبد أصدق مثال؛ فقال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّراتِ الذُّنوبِ[2]، فَإِنَّما مَثَلُ مُحَقَّراتِ الذُّنوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجاءَ ذَا بِعُودٍ، وجَاءَ ذا بِعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا ما أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وإِنَّ مُحَقَّراتِ الذُّنوبِ مَتَى يُؤخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

«يا عائِشَةُ! إِيَّاكِ وَمُحَقَّراتِ الذُّنوبِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ طَالِباً»[4].

فهٰذا شأن محقرات الذنوب وخطرها، فكيف بالكبائر؟! فينبغي للعاقل أن يحذر من الذنوب، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، فإن خطرها عظيم، وهي بريد الكفر؛ كما قال السلف، فيُخشى على المصر عليها من الرِّدة، والموت على الكفر، والعياذ بالله تعالى.

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، إنْ كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات (يعني

---

(١) الزلزلة: ٧ و٨.

(٢) أي: ما يستهان به منها، وهي الصغائر.

(٣) أخرجه أحمد (١ / ٤٠٢) وغيره؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢ / ٣٨٧): حسن. وأخرجه أحمد ـ أيضاً ـ (٥ / ٣٣١) وغيره؛ عن سهل بن سعد رضي الله عنه؛ بإسناد حسنه الحافظ في «الفتح» (١١ / ٣٢٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١ / ٦٧٤) على شرط الشيخين.

(٤) أخرجه الدارمي (٢ / ٣٠٣)، وابن ماجه (٤٢٤٣)، وابن حبان (٢٤٩٧ ـ موارد)، وأحمد (٦ / ٧٠ و١٥١)، وغيرهم. وهو في «الصحيحة» (رقم ٥١٣).

بذلك: المهلكات)[1].

وقال الشاعر[2]:

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرا ... إِنَّ الصَّغِيرَ غَداً يَعُودُ كَبِيرا
إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... عِنْدَ الإِلٰهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرا
فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ البَطَالَةِ لَا تَكُنْ ... صَعْبَ القِيَادِ وَشَمِّرَنْ تَشْمِيرا
إِنَّ المُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلٰهَهُ ... طَارَ الفُؤَادُ وَأُلْهِمَ التَّفْكِيرا

وقال غيره[3]:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا فَهْوَ التُّقَى
واصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وفي «المدهش»[4]: يا مجتنباً من الهدى طريقاً واضحاً! افتح عين الفكر؛ تر العلم لائحاً، احذر بئر الغفلة؛ فكم غال سائحاً، وتوق بحر الجهل؛ فكم أغرق سابحاً.

يَا غَادِياً فِي غَفْلَةٍ وَرَائِحا ... إِلَى مَتَى تَسْتَحْسِنُ القَبَائِحا
وَكَمْ إِلَى كَمْ لَا تَخَافُ مَوقِفاً ... يَسْتَنْطِقُ اللهُ بِهِ الجَوَارِحا
يا عَجَباً مِنْكَ وَأَنْتَ مُبْصِرٌ ... كَيْفَ تَجَنَّبْتَ الطَّرِيقَ الوَاضِحا
كَيْفَ تَكُونُ حِينَ تَقْرَأُ فِي غَدٍ ... صَحِيفَةً قَدْ حَوَتِ الفَضَائِحا

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٣٢٩ - فتح)، وجملة «يعني بذلك المهلكات» من كلام البخاري.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٦٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٠).

(٤) (ص ٣١٥).

وَكَـيْفَ تَرْضَـى أَنْ تَكُـونَ خَاسِـراً يَوْمَ يَفُـوزُ مَنْ يَكُـونُ رَابِـحـا

يا معدوماً في الأمس، فانياً في الغد، عاجزاً في الحال! من أنت حتى تغتر بسلامتك، وتنسى حتفك؟ وأملك بين يديك، وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك، كم نهيت عن أمر، فما كفّك النهي أن تبسط كفك؟ يا من قد طال زلله وتعثيره! تفكر في عمر قد مضى كثيره، يا قلباً مشتتاً قَلَّ نظيره! كم هٰذا الهـوى؟ ولكم هوى أسيره؟ أيهـا القاعد عن أعالي المعالي! سبق الأبطال، والبطّال ما يبالي اهـ.

* * * * *

فصل
في بيان عقوبات المعاصي

كل ما في العالم من فساد وشرور ومصائب وأمراض ـ لا يحصي عددها إلا الله تعالى ـ، وسائر العقوبات الدنيوية والبرزخية والأخروية؛ فسببها جنايات العبد؛ من معاصي القلب واللسان والجوارح(١).

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾(٢).

قال ابن القيم(٣): فما سُلِّط على العبد مَنْ يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه؛ أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه؛ أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ»(٤).

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه؛ أضعاف أضعاف ما

---

(١) وأحياناً قد يصاب العبد المؤمن وعلى قدر دينه بمصيبة؛ ابتلاءً من الله تعالى له؛ لرفع منزلته عنده تبارك وتعالى.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٣) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٤٢).

(٤) سيأتي (ص ٢٧٤).

يعلمه؛ فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعضَ السلف رجلٌ، فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل، فسجد لله وتضرع إليه، وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه؛ فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

ثم قال ابن القيم رحمه الله: ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عُوفِيَ العبد من الذنوب؛ عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغي عليه وأُوذي، وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النَّصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولٰكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهٰذا؛ لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله اهـ.

وقال ابن الجوزي(١): شكا لي رجل من بغضه لزوجته، ثم قال: ما أقدر على فراقها لأمور؛ منها كثرة دَيْنها عليّ، وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها.

فقلت له: هٰذا لا ينفع، وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، فينبغي أن تخلو بنفسك، فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك، فتبالغ في الاعتذار والتوبة.

فأما التضجر والأذى لها فما ينفع؛ كما قال الحسن بن الحجاج: عقوبة

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣٩٣).

من الله لكم، فلا تقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار.

واعلم أنك في مقام مبتلى، ولك أجر بالصبر، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1]. فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى، واسأله الفرج.

فإذا جمعت بين الاستغفار، وبين التوبة من الذنوب، والصبر على القضاء، وسؤال الفرج، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها.

ولا تضيع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظناً منك أنك تدفع ما قُدِّر: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[2] اهـ.

فصل

وقال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

وفي «الجواب الكافي»[6]: فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد؛ حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه؛ فيغير طاعة الله بمعصيته،

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) الأنعام: ١٧ ويونس: ١٠٧.

(٣) الروم: ٤١.

(٤) الرعد: ١١.

(٥) الأنفال: ٥٣.

(٦) ص ٨٦.

وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غَيَّر غُيِّر عليه، جزاءً وفاقاً، ﴿وما ربُّك بظلَّامٍ للْعَبيدِ﴾[1]. فإن غيَّر المعصية بالطاعة، غَيَّر اللهُ عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز.

وفيه[2]:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ ... فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ ... فَظُلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى ... لِتُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ بَعْدَهُمْ ... شُهُودٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ تُتَّهَمْ
وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ أَضَرَّ ... مِنَ الظُّلْمِ وَهْوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ
فَكَمْ تَرَكُوا مِنْ جِنَانٍ وَمِنْ ... قُصُورٍ وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ أَطَمْ[3]
صَلُوا بِالْجَحِيمِ وَفَاتَ النَّعِيمُ ... وَكَانَ الَّذِي نَالَهُمْ كَالْحُلُمْ

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ؛ فقال:

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتى يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزانَ؛ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ[4]، وَشِدَّةِ الْمَؤونَةِ، وَجَوْرِ

---

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) ص ٨٦.

(٣) أي: أشد وأفظع.

(٤) جمع سَنَة؛ أي: جَدْب وقحط.

السُّلْطانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ؛ إِلاَّ مُنِعُوا القَطْرَ[1] مِنَ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

ولَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ؛ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ ما فِي أَيْدِيهِمْ.

وما لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا[2] مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ؛ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[3].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَيَشْرَبَنَّ ناسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ، يُسَمُّونَها بِغَيْرِ اسْمِها، يُعْزَفُ عَلَى رُؤوسِهِمْ بِالمَعازِفِ وَالمُغَنِّياتِ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنازِيرَ»[4].

وعن ابن عمر رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِذا تَبايَعْتُمْ بِالعِينَةِ[5]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[6].

---

(١) أي: المطر.

(٢) أي: يطلبوا الخير؛ أي: وما لم يطلبوا الخير والسعادة مما أنزل الله.

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٠١٩) وغيره، وحسنه بطرقه الألباني في «الصحيحة» (رقم ١٠٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٠٢٠) وغيره، وقال الألباني: صحيح. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١ / ١٣٩).

(٥) (العينة): أن يبيع شيئاً من غيره بثمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقداً. وانظر: «النهاية» (٣ / ٣٣٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) وغيره، وصححه الألباني لطرقه في «الصحيحة» (رقم ١١).

وقال ابن الجوزي[1]: اعلموا إخواني! ومن يقبل نصيحتي؛ أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة، والمُجازي بالمرصاد، لا يسبقه شيء ولا يفوته.

فوا أسفاً لمضروب بالسياط ما يحس بالألم، ولِمُثْخَنٍ وما عنده من نفسه خبر، ولِمُتقلِّبٍ في عقوبات ما يدري بها، وإن أعظم العقوبة؛ أن لا يدري بالعقوبة.

فواعجباً للمغالط نفسه! يُرضي نفسه بشهوة، ثم يُرضي ربه بطاعة، ويقول حسنة وسيئة.

ويحك! من كيسك تنفق، ومن بضاعتك تهدم، ووجه جاهك تشين، رب جراحة قتلت، ورب عثرة أهلكت، ورب فارط لا يُستدرك.

ويحك! انتبه لنفسك ما الذي تنتظر بأَوْبَتِكَ؟ وماذا تترقب بتوبتك؟ المشيب؟ فها هو ذا أوهن العظم، وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللحاق؟

قدِّرْ أن ما تُؤمِّله من الدنيا قد حصل، فكان ماذا؟ ما هو عاجل فشَغَلَك عاجلاً، ثم آخر جرعةِ اللذة شرقة، وإما أن تفارق محبوبك، وإما أن يفارقك، فيا لها جرعة مريرة، تَوَدُّ عندها أن لو لم تره.

آه لمحجوب العقل عن التأمل! ولمصدود عن الورود، وهو يرى المنهل، أما في هٰذه القبور نذير؟ أما في كرور الزمان زاجر؟

أين من مَلَكَ وبلَغ المُنى فيما أمَّل؟ نادهم في ناديهم، هيهات صُمُّوا عن مُناديهم، فلو أن ما بهم الموت، إنما هنيهة... ثم القبور.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٨٩) بتصرف يسير.

العملَ حَصِّلْ يا معدوماً بالأمس! يا متلاشي الأشلاء في الغد! بأي وجه تلقى ربك؟ أيساوي ما تناله من الهوى لفظ عتاب؟ فكيف إن أعقب العتابَ عقاب؟

وقال ابن رجب[1]: الحذر الحذر من المعاصي؛ فكم سلبت من نِعَم، وكم جلبت من نِقَم، وكم خرّبت من ديار، وكم أَخْلَت دِياراً من أهلها؛ فما بقي من ديّار، كم أخذت من العصاة بالثار، كم محت لهم من آثار؟!

يا صَاحِبَ الـذَّنْبِ لَا تَأْمَنْ عَوَاقِبَـهُ عَوَاقِبُ الـذَّنْبِ تُخْشَى وَهْيَ تُنْتَظَرُ
فَكُـلُّ نَفْسٍ سَتُجْزَى بِالَّذِي كَسَبَتْ وَلَـيْسَ لِلْخَـلْقِ مِنْ دَيَّانِـهِـمْ وَزَرُ[2]

وقال ابن القيم[3]: قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب، ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضَنْك المعيشة، وكسف البال... تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله؛ كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هٰذه تتولد من الطاعة.

وقال[4]: وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة؛ ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية

---

(١) «لطائف المعارف» (ص ١٥٤).

(٢) أي: مهرب وملجأ.

(٣) «الفوائد» (ص ٤٧).

(٤) مقتطفاً من «الجواب الكافي» (ص ٦٠ ـ ١٠٦)، وبتصرف يسير أحياناً.

تطفىء ذٰلك النور.

ومنها: حرمان الرزق.

ومنهـا: وحشة يجدها العاصي في قلبـه بينه وبين الله، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها؛ لم تَفِ بتلك الوحشة، وهٰذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حرِيّاً بتركها، وليس على القلب أمَرّ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.

ومنهـا: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، وتقوى هٰذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً من نفسه.

ومنها: تعسير أموره عليه.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها؛ كما يحس بظلمة الليل، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسيّة لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمـة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر.

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن.

ومنها: حرمان الطاعة؛ فالذنب يصد عن طاعة تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرى؛ كرجل أكل أكلة، أوجبت له مرضة طويلة، منعته من عدة أكلات أطيب منها.

ومنهـا: أن المعـاصي تقصر العمر، وتمحق بركته ولا بد، فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته

بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هٰذه الأوقات؛ التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، ويُوَلِّد بعضها بعضاً، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها؛ حتى يرسل الله عليه الشياطين، فتَؤزُّهُ إليها أَزّاً.

ومنها ـ وهو من أخوفها على العبد ـ: أنها تُضْعِف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادتها بالكلية؛ فلو مات نصفه ما تاب إلى الله.

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه.

ومنها: أن المعصية سبب هوان العبد على ربه.

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب، حتى يهون عليه، ويصغر في قلبه، وذٰلك علامة الهلاك.

ومنها: أن المعاصي تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى.

ومنها: أن المعاصي تضعف من القلب الغيرة التي هي حياته وصلاحه، فلا يغار على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف الغيرة في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذٰلك القبيح، لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هٰذا الحد؛ فقد دخل في باب الهلاك.

ومن عقوبات المعاصي: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

ومن عقوباتها: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلَّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه.

ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يُرجى معه نجاة، قال الله تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾(١). فأمر بتقواه، ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى: بأن أنساه نفسه؛ أي: أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاءً لما نسيه من عظمته وخوفه، والقيام بأمره، فترى العاصي مهمِلاً لمصالح نفسه، مضيعاً لها، وقد أغفل قلبه عن ذكر ربه، ﴿**واتَّبَعَ هَوَاهُ وكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾(٢)؛ قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرّط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما هي سحابة صيف، أو خيال طيف؛ كما قيل:

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لا يُخْدَعُ

وأعظم العقوبات: نسيان العبد نفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبها من الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضَيَّع مَن لا غنى له عنه، ولا عِوَض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى، ومنه كل العوض.

ومن عقوباتها: أنها تُضْعِف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه

---

(١) الحشر: ١٨ و١٩.

(٢) الكهف: ٢٨.

أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله تعالى خطوة، هٰذا إن لم تَردَّه عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب.

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم، وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب.

ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي؛ فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً، فإن الطاعة حصن الله الأعظم؛ الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة.

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً، لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه.

ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتحقرها وتدسيها وتقمعها، حتى تكون أصغر من كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها؛ قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها . وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**﴾(١).

ومن عقوباتها: أن العاصي دائماً في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه، فكيف يسير إلى الله تعالى والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟! وإذا قُيِّد القلب طرقته الآفات من كل جانب؛ بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بَعُد عن الآفات.

ومن عقوباتها: أنها تُجَرّيء على العبد من لم يكن يجتريء عليه من أصناف المخلوقات، فتجتريء عليه الشياطين بالأذى، والإغواء والوسوسة، والتخويف والتحزين، وإنسائه ما مصلحته في ذكره، ومضرته في نسيانه،

---

(١) الشمس ٩ و١٠.

وتجترىء عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه، حتى الحيوان البهيم.

ومنها: أن المعاصي سبب لسوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى اهـ.

(فائدة): قال ابن القيم رحمه الله تعالى[1]: إن قيل: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهياً غافلاً، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته؟

قيل: هٰذا لعمر الله! سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، فاجتماع هٰذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهٰذا التخلف له عدة أسباب، أحدها: ضعف العلم، ونقصان اليقين، ومن ظنّ أن العلم لا يتفاوت، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذٰلك تقاضي الطبع، وغَلَبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورُخَص التأويل، وإلف العوائد، فهناك لا يُمسك الإيمان إلا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وبهٰذا السبب يتفاوت الناس بالإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب، وجماع هٰذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهٰذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة الدين؛ فقال تعالى:

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ٤٠ و٤١).

﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لما صَبَروا وكانوا بِآياتِنا يُوقِنونَ﴾[1].

وفي «مختصر منهاج القاصدين»[2]: فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فعن ذٰلك أجوبة؛ منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر.

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة، وقد وُعِد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يُسوف بالتوبة[3]، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه.

وعـلاج هٰذه الأسباب: أن يفكر في نفسه؛ أن كل ما هو آتٍ قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف؛ بالفكر في أن المُسَوِّف يَبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غداً؛ كما يقدر عليه اليوم، وهل عَجِز في الحال إلا لغلبة الشهوة، وهي غير مفـارِقةٍ له غداً؟ بل يتأكد بالاعتياد، ومن هٰذا هلك المسوِّفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال مَن احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية، لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أُؤخرها سنة، ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب! من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت؟

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) (ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٣) أي: يؤجلها ويقول: سوف أتوب.

وأمـا انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن؛ إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذٰلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء، ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خِربة، وهٰذا ممكن، إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق اهـ.

فصل

ومن الناس من يتكل في ارتكابه المعاصي على قوله: «لا إلٰه إلا الله»؛ ظناً منه أن من قالها لا يعذب ولا تضره معصية، وهٰذا من أعظم الغرور، وأكبر الفجور، وأعجب الجهل بهٰذه الكلمة العظيمة؛ فإن «لا إلٰه إلا الله» تقتضي فعـل الأوامر، وترك النواهي، وبقدر صدق العبد وإخلاصه في قولها؛ تنبعث جوارحه في طاعة الله تعالى، وتنصرف عن معصيته.

وبحسب ذٰلك تنصرف عن العبد عقوبات الدنيا والآخرة؛ فلا يظن غارق في الجهل أن العذاب خاص بالكفار، بل إن كثيراً من أهل الإسلام يعذبون في النار، بحسب تهاونهم في العمل بمقتضى كلمة «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله»؛ وإن كان آخر أمرهم إلى الجنة.

وكثير منهم أيضاً يعذبون في قبورهم، ومن أمثلة ذٰلك ما رواه سَمُرة بن جندب رضي الله عنـه؛ قال: كان رسـول الله ﷺ يُعنى ممـا يكثر أن يقول لأصحابه: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤيا؟». قال: فيقص عليه ما شـاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة:

«إِنَّهُ أَتاني اللَّيْلَةَ آتِيانِ، وإِنَّهُما ابْتَعَثاني، وإِنَّهُما قالا لِي: انْطَلِقْ. وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُما، وَإِنَّا أَتَيْنا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ،

وَإِذا هُوَ يَهْوي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ[1] رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ[2] الحَجَرُ هٰهُنا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه؛ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ ما فَعَلَ بِهِ المَرَّةَ الأولى. قالَ: قُلْتُ لَهُما: سُبْحانَ اللهِ! ما هٰذانِ؟ قالَ: قَالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنا؛ فَأَتَيْنا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ[3] مِنْ حَدِيدٍ، وإذا هُوَ يَأْتي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ[4] إلى قَفاهُ، وَمِنْخَرَهُ إِلَى قَفاهُ، وعَيْنَهُ إِلَى قَفاهُ، قالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجانِبِ الآخَرِ؛ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذٰلِكَ الجانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذٰلِكَ الجانِبُ كَما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأولى. قالَ: قُلْتُ: سُبْحانَ اللهِ! ما هٰذانِ؟ قالَ: قَالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فانْطَلَقْنا؛ فَأَتَيْنا على مِثْلِ التَّنُّور، قالَ: فَاطَّلَعْنا فيه، فَإِذا فيهِ رِجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هُمْ يَأْتيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإذا أَتاهُمْ ذٰلِكَ اللَّهَبُ؛ ضَوْضَوْا[5]. قالَ: قُلْتُ لَهُما: ما هٰؤلاءِ؟ قالَ: قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. قالَ:

فَانْطَلَقْنا؛ فَأَتَيْنا عَلى نَهْرٍ، وإذا في النَّهْرِ رَجُلٌ سابِحٌ يَسْبَحُ، وإذا عَلى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجارَةً كَثيرَةً، وإذا ذٰلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ما يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتي ذٰلِكَ الَّذي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فاهُ[6]، فَيُلْقِمُهُ حَجَراً، فَيَنْطَلِقُ

---

(١) (يثلغ رأسه)؛ أي: يشدخ.

(٢) (فيتدهده)؛ أي: يتدحرج.

(٣) (الكلوب) بفتح الكاف وضمها وتشديد اللام: هو حديدة معوجة الرأس.

(٤) (يشرشر شدقه): يقطعه ويشقه.

(٥) (ضوضوا): صاحوا مع انضمام وفزع.

(٦) (فغر فاه): فتحه.

يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّما رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَراً. قالَ: قُلْتُ لَهُما: ما هٰذان؟ قالَ: قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. قالَ:

فَانْطَلَقْنا؛ فَأَتَيْنا على رَجُلٍ كَريهِ المَرْآةِ؛ كَأَكْرَهِ ما أَنْتَ راءٍ رَجُلاً مَرْآةً، وإِذا عِنْدَهُ نارٌ يَحُشُّها[١] وَيَسْعى حَوْلَها. قالَ: قُلْتُ لَهُما: ما هٰذا؟ قالَ: قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنا؛ فَأَتَيْنا عَلى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ[٢]، فيها مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبيعِ، وإِذا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَويلٌ لا أَكادُ أَرى رَأْسَهُ طُولاً في السَّماءِ، وإِذا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ. قالَ: قُلْتُ لَهُما: ما هٰذا، ما هٰؤلاءِ؟ قالَ: قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنا؛ فَانْتَهَيْنا إِلى رَوْضَةٍ عَظيمَةٍ، لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْها وَلا أَحْسَنَ. قالَ: قالا لي: ارْقَ، فَارْتَقَيْتُ فيها. قالَ: فَارْتَقَيْنا فيها، فَانْتَهَيْنا إِلى مَدينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنا بابَ المَدينَةِ، فَاسْتَفْتَحْنا، فَفُتِحَ لَنا، فَدَخَلْناها، فَتَلَقَّانا فيها رِجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ ما أَنْتَ راءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ ما أَنْتَ راءٍ. قالَ: قالا لَهُمْ: اذْهَبوا فَقَعُوا في ذٰلِكَ النَّهْرِ. قالَ: وإِذا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْري كَأَنَّ ماءَهُ المَحْضُ[٣] مِنَ البَياضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنا قَدْ ذَهَبَ ذٰلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ؛ فَصارُوا في أَحْسَنِ صُورَةٍ. قالَ:

قالا لي: هٰذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وهٰذاكَ مَنْزِلُكَ. قالَ: فَسما بَصَري صُعُداً[٤]،

---

(١) (يحشها)؛ أي: يوقدها.

(٢) (معتمة): طويلة النبات، وقيل مُعْتِمَة: من العَتَمَة وهو شدة الظلام، والمقصود هنا وصفها بشدة الخضرة، واختار هٰذا المعنى الحافظ في «الفتح» (١٢ / ٤٤٣).

(٣) (المحض): الخالص من كل شيء.

(٤) (فسما بصري صعداً)؛ أي: ارتفع بصري إلى فوق.

فإذا قصرٌ مثْلُ الرَّبابَةِ[1] البَيْضاءِ. قالَ: قالا لي: هٰذاكَ مَنْزِلُكَ. قالَ: قُلْتُ لَهُما: بارَكَ اللهُ فيكُما، ذَراني فَأَدْخُلَهُ. قالا: أَمَّا الآنَ فَلا، وأَنْتَ داخِلُهُ. قالَ:

قُلْتُ لَهُما: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً، فما هٰذا الَّذي رَأَيْتُ؟ قالَ: قالا لي: أَما إِنَّا سَنُخْبِرُكَ:

أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ؛ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ بِالقُرْآنِ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكْتوبَةِ.

وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلى قَفاهُ، وَمَنْخَرُهُ إِلى قَفاهُ، وَعَيْنُهُ إِلى قَفاهُ؛ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ.

وأَمَّا الرِّجالُ وَالنِّساءُ العُراةُ الَّذينَ فِي مِثْلِ بِناءِ التَّنُّورِ؛ فَهُمُ الزُّناةُ وَالزَّواني.

وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ في النَّهْرِ، وَيُلْقَمُ الحَجَرَ؛ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبا.

وأَمَّا الرَّجُلُ الكَريهُ المَرآةِ الَّذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّها وَيَسْعى حَوْلَها؛ فَإِنَّهُ مالِكٌ خازِنُ جَهَنَّمَ.

وأَمَّا الرَّجُلُ الطَّويلُ الَّذي في الرَّوْضَةِ؛ فَإِنَّهُ إِبْراهِيمُ ﷺ. وأَمَّا الوِلْدانُ الَّذينَ حَوْلَهُ؛ فَكُلُّ مَوْلودٍ ماتَ على الفِطْرَةِ». قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأَوْلادُ المُشْرِكينَ».

«وأَمَّا القَوْمُ الَّذينَ كانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَناً وَشَطْرٌ قَبيحاً؛ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً، تَجاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: مر النبي ﷺ بحائط من حيطان

---

(١) (الربابة) هنا: السحابة.

(٢) أخرجه البخاري (١٢ / ٤٣٨ ـ فتح)، وفي مواضع أخر، ومسلم (٢٢٧٥)، وغيرهما.

المدينة ـ أو مكة ـ، فسمع صوت إنسانين يُعذَّبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «يُعَـذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ فِي كَبيرٍ». ثم قال: «بَلَى، كانَ أَحَدُهُما لا يَسْتَتِرُ[1] مِنْ بَوْلِهِ، وكانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[2].

فصل

ومن الناس من يغتر باعتقاده أنـه يحسن الظن بالله عز وجل، وأنه لن يعذبه، وسيتجاوز عنه، وهو سبحانه أهل للظن الحسن، وهٰذا لعمر الله تعالى؛ ظاهره حق، وإن كان صاحبه مغروراً؛ فإن إحسان الظن بإحسان العمل، ولو أحسن قائل هٰذا ظنه بالله عز وجل لأحسن عمله، بل إن هٰذا منه إساءة ظن بالله تعالى؛ فإنه سبحانه قد توعد على المعصية بالعقاب، وهٰذا يقول: لا يعذبني. ويعتبر ذٰلك إحسان ظن بالله تعالى!!

قال ابن القيم[3]: كيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحـل في مسـاخـطه ومـا يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟

وقال[4]: حُسن الظن إن حمل على العمل، وحث عليه، وساق إليه؛ فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي؛ فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة، وزاجراً له عن المعصية؛ فهو

---

(١) ثلاث روايات: هٰذه ويستبرىء ويستنزه. قال النووي في «شرح مسلم» (٣ / ٢٠١): وكلها صحيحة ومعناها لا يتجنبه ويحترز منه.

(٢) أخرجه البخاري (١ / ٣١٧ ـ فتح) وفي مواضع أخر، ومسلم (٢٩٢)، وغيرهما.

(٣) «الجواب الكافي» (ص ٢٤).

(٤) المصدر السابق (ص ٤١).

رجاء صحيح، ومَنْ كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطاً؛ فهو المغرور. ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من فعلها ما ينفعه، فأهملها ولم يبذرها، ولم يحرثها، وحسن ظنه بأنه يأتي من فعلها ما يأتي من حَرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض؛ لعدَّه الناس من أسفه السُّفهاء، وكذٰلك لو حسن ظنه، وقوي رجاؤه؛ بأن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم، وحرص تام عليه، وأمثال ذٰلك، فكذٰلك من حسن ظنه، وقوي رجاؤه؛ في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم، من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ**﴾[1]، فتأمل كيف جعل رجاءَهم إتيانهم بهٰذه الطاعات؟! اهـ.

فصل

ومن الناس من يغتر باستغفار اللسان، وتوبة الكذّابين، أو بأذكار يقولها، ووعد الشرع عليها بالمغفرة أو الجنة، فيظن أنه قد حصّل الموعود بمجرد أن يقولها بلسانه، وهو مقيم على المعاصي، معانق لها، مشغوف بها.

فمن ذٰلك ـ مثلاً ـ من يتلفظ بسيد الاستغفار[2]، ويقول أنا إذا قلته دخلت الجنة؛ كما في الحديث.

فيقال لهٰذا المغرور: هٰذا الوعد لمن قاله صادقاً من قلبه، بإخلاص وحضور وفهم لمعناه، وهٰذا صعب عزيز؛ لا يأتي بالهين، ولا ينال بالأمنية.

---

(١) البقرة: ٢١٨.

(٢) سيأتي مع شرحه.

فصل

ومن الناس من يغتر في ارتكابه المعاصي، بكثرة مطالعة العلم وحفظه، ومصاحبة العلماء، ويظن أن ذلك ينجيه، وذلك لشرف العلم وفضله عند الله تعالى، وهذا من أغرب أنواع الغرور؛ فإن العلم الشريف الذي مدحه الله ورسوله؛ هو العلم المثمر لخشية الله تعالى والعمل بتقواه، أما العلم المجرد الذي لا ثمرة له؛ فلا ينفع بحال حتى يعمل صاحبه به، وغالباً ما يكون صاحبه مريداً به وجه الناس والمنزلة عندهم؛ لأنه لا يملك من طاعة الله تعالى النصيب الذي تَندفع بنوره آفات الأعمال؛ من رياء وعجب وغير ذلك.

فصل

ومن الناس من يغتر بنعم الله تعالى عليه؛ فيظن أن الله تعالى ما أنعم عليه إلا لأنه يحبه، وأنه أهل لذلك، مع أنه مقيم على المعصية، مقصر في الطاعة، ولا يدري المسكين أن هذا استدراج من الله تعالى له؛ كما روى عقبة ابن عامر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال:

«إِذَا رَأَيْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي العَبْدَ مَا يُحِبُّ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى معاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذٰلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ»، ونزع بهذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذينَ ظَلَموا والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾[1][2].

---

(١) الأنعام: ٤٤ و٤٥.

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ١٤٥)، وابن جرير في «تفسيره» (رقم ١٣٢٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) واللفظ له، وغيرهم، وحسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤ / ١٣٢)، وصححه الألباني لغيره في «الصحيحة» (١ / ٧٠٠).

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾(١).

قال ابن القيم(٢): أي ليس كل من نعَّمته ووسَّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل قد أبتلي هٰذا بالنعم، وأكرم هٰذا بالابتلاء اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۞ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾(٤).

فصل

ومن الناس من يغرّه في ارتكاب المعاصي عدم رؤيته عقوبة الله تعالى عليها، فيظن أنها قد غُفرت، أو أنها ليست بشيء؛ فيستحقرها وينساها ما دام لا يَرى أثرها.

وهٰـذا الصنف من المغـرورين يشبه الذي قبله؛ فذاك غرته نعم الدنيا

---

(١) الفجر: ١٥ ـ ١٧.

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٣٧).

(٣) الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥.

(٤) المؤمنون: ٥٤ ـ ٥٦.

ورزق الله تعـالى، وهٰذا غرته نعمة الأمن وتأخير العقوبة، وكلاهما ـ والعياذ بالله ـ مستدرج خاسر؛ قال الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الـلهَ لَيُمْلِي للظَّالِم، حَتَّى إِذَا أَخَـذَهُ لَمْ يُفْلِتْـهُ». قال: ثم قرأ: ﴿وكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ القُرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2،3].

* * * * *

(١) الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩.

(٢) هود: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري (٨ / ٣٥٤ ـ فتح)، ومسلم (٢٥٨٣)، وغيرهما.

الباب الثاني

في التوبة إلى الله تعالى
وما يعين عليها

فصل

في وجوب التوبة

اعلم أن التوبة ـ كما قال النووي[1] ـ أهم قواعد الإسلام، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة.

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوبها؛ فمن أدلة الكتاب المبين؛ قول الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

ومن أدلة السنة؛ ما رواه أبو بُردة؛ قال: سمعت الأغرَّ ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ يحدث ابنَ عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «شرح مسلم» (١٧ / ٢٥).

(٢) هود: ١ ـ ٣.

(٣) النور: ٣١.

(٤) الحجرات: ١١.

«يا أَيُّها النَّاسُ! تُوبوا إلى اللهِ؛ فَإنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1].

وستأتي أدلة أخرى من الكتاب والسنة تبين وجوب التوبة، وتَرَتُّبَ العقاب على تركها.

وأما الإجماع على وجوب التوبة؛ فقد ذكره القرطبي[2] والنووي[3] والغزالي[4] وغيرهم.

والتوبة إلى الله تعالى، والرجوع إليه سبحانه؛ بفعل ما أوجب، وترك ما حرم واجبة على كل مكلف من الجن والإنس، سواء كان كافراً أو مسلماً؛ فيجب على الكافر التوبة من كفره بدخول الإسلام، ثم التوبة من ترك المأمور وفعل المحظور، ويجب على كل مسلم عاص التوبة في الحال من ذنوبه، وترك الإصرار عليها، بل إن كل مؤمن بحاجة إلى التوبة على الدوام؛ فإنه لا يخلو؛ إما أن يكون في معصية أو في غيرها، فإن كان في معصية فضرورة التوبة ظاهرة، وأما إن كان في غيرها، حتى ولو كان واجباً أو مستحباً؛ فلا بد من التقصير في حق الله تعالى؛ فلزمت التوبة من هٰذا الوجه، وكلما زاد علم العبد بحقوق الله تعالى وعظمته، وزادت معرفته بنفسه وعيوبها وجهلها وتقصيرها؛ علم أنه محتاج إلى التوبة والاستغفار في الليل والنهار.

وفي «مختصر منهاج القاصدين»[5]: التوبة واجبة على الدوام؛ فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية الجوارح؛ لم يخل عن الهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) وغيره.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥ / ٩٠).

(٣) «رياض الصالحين» (٢ باب التوبة).

(٤) «الإحياء» (٤ / ٥).

(٥) (ص ٢٥١ ـ ٢٥٢).

بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذٰلك؛ لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذٰلك نقص، ولا يسلم أحد من هٰذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذٰلك؛ فلا بد منه اهـ.

ويدل على حاجة الخلق كلهم إلى التوبة؛ أن الله تبارك اسمه أمر بها مخاطباً المؤمنين جميعاً؛ فقال سبحانه:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(1).

ويدل على ذٰلك؛ قول النبي ﷺ:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(2).

وينبه إلى ذٰلك أيضاً - كما أفاده شيخ الإسلام وغيره -؛ أن الطاعات الكبار شُرِعَ أن تختم بالاستغفار؛ فمن ذٰلك الصلاة، فرَوى ثوبان رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته؛ استغفر ثلاثاً. الحديث(3).

وكذٰلك شُرِع الاستغفار بعد صلاة الليل؛ كما قال الله تعالى:

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(4).

قال السعدي(5): فمدُّوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم

---

(1) النور: ٣١.

(2) أخرجه الدارمي (٢ / ٣٠٣)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٤ / ٢٤٤)، وأحمد (٣ / ١٩٨)، وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٢ / ٧٢٤).

(3) أخرجه مسلم (٥٩١) وغيره.

(4) الذاريات: ١٧ و١٨.

(5) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٩٤).

بالليل يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه اهـ.

وشرع الاستغفار - أيضاً - بعد عبادة الحج؛ كما قال تعالى:

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأنعم الله تعالى عليه بالنصر والفتح؛ بأن يسبح بحمد الله ويستغفره؛ فقال سبحانه:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾(2).

فصل

في معنى التوبة وأنواعها

اعلم أن التوبة إلى الله تعالى: هي الرجوع إليه سبحانه مما يكرهه ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً.

قال شيخ الإسلام(3): التوبة المشروعة: هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط؛ كما يظن كثير من الجهال؛ لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح؛ كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها؛ أهم من التوبة

---

(1) البقرة: ١٩٨ و١٩٩.

(2) النصر: ١ - ٣.

(3) «التوبة» (ص ١٥).

من فعل السيئات المنهي عنها.

وقال رحمه الله[1]: التوبة نوعان: واجبة ومستحبة.

فالواجبة: هي التوبة من ترك مأمور، أو فعل محظور، وهٰذه واجبة على جميع المكلفين؛ كما أمرهم الله بذٰلك في كتابه، وعلى ألسنة رسله.

والمستحبة: هي التوبة من ترك المستحبات، وفعل المكروهات.

فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين؛ إما الكافرين، وإما الفاسقين.

(تنبيه): قال ابن القيم[2]: كثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي[3]، وإن كان في حق آدمي؛ فلا بد من أمر رابع، وهو التحلل منه.

وهٰذا الذي ذكروه بعض مسمى التوبة؛ بل شرطها[4]، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ـ كما تتضمن ذٰلك ـ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه؛ فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً؛ حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به، هٰذا حقيقة التوبة؛ وهي اسم لمجموع الأمرين، ولٰكنها إذا قرنت بفعل المأمور؛ كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة «التقوى»؛ التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن

---

(١) «التوبة» (ص ١٣ ـ ١٤).

(٢) «المدارج» (١ / ٣٠٥).

(٣) يعني: الندم على ما مضى.

(٤) كما سيأتي (ص ٩٥ ـ ٩٩).

المحظور[1].

فإن حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره؛ فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر اهـ.

فصل

في التوبة النصوح

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

قال السعدي[3]: قد أمر الله بالتوبة النصوح في هٰذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون برَوحه وراحته، ويُشفقون إذا طفئت الأنوار التي تُعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هٰذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب، التي عقدها العبد لله،

---

(١) كما تقدم في «الباب الأول ـ فصل في بيان معنى التقوى وحقيقتها».

(٢) التحريم: ٨.

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٢٧٠).

لا يريد بها إلا وجه الله، والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله[1].

قال ابن القيم[2]: «النصوح»؛ على وزن فعول، المعدول به عن فاعل؛ قصداً للمبالغة؛ كالشكور والصبور، وأصل مادة «ن ص ح»؛ لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح؛ إذا خلص، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش وفساد، وإيقاعها على أكمل وجه، والنصح ضد الغش.

ثم قال رحمه الله[3]: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته، مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب، والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذٰلك من العلل

---

(١) هٰذا هو الواجب على التائب؛ أن يستمر بتوبته إلى الممات، وأحد شروط صحة التوبة أن يعزم على عدم المعاودة أبداً؛ لٰكن العبد قد يعود ويقع في الذنب، فلا نجزم أن توبته كانت غير صحيحة، بل إذا استوفى شروط التوبة ـ وسيأتي ذكرها ـ؛ فإن توبته صحيحة وَعَدَ الله تعالى بقبولها، وإن عاد إلى الذنب؛ فإنه يلزمه توبة أخرى صحيحة مثلها.

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ٣١٠).

(٣) (ص ٣١١).

التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنُصْح التوبة: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هٰذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال أيضاً[1]: لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بطهرهم؛ طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإذا أراد الله بعبده خيراً؛ أدخله أحد هٰذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيباً طاهراً، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

وقال[2]:

فصل

في أجناس ما يتاب منه ولا يستحق العبد اسم التائب حتى يتخلص منها

وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله عز وجل، هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٣١٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ٣٣٥).

فهٰذه الاثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذٰلك، وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

قال: وهٰذا الفصل من أنفع فصول الكتاب، والعبد أحوج شيء إليه.

ثم ذكرها جميعاً وبيّن حدودها وحقائقها.

فصل

في الفرق بين التوبة والاستغفار

جاء الاستغفار في القرآن الكريم؛ تارة منفرداً، وتارة مقروناً بالتوبة، وكذا التوبة؛ جاءت منفردة.

فالاستغفار المنفرد؛ مثل قول الله تعالى:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

والتوبة المنفردة؛ كقوله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

---

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) النساء: ١١٠.

(٣) النور: ٣١.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ (١).

والجمع بين التوبة والاستغفار؛ مثل قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ الآية (٣).

فالاستغفار إذا جاء منفرداً؛ فإنه يعني طلب المغفرة، ووقاية شر ما مضى من الذنوب، ويتضمن التوبة؛ وهي الرجوع إلى الله تعالى؛ بفعل أوامره، وترك نواهيه.

وكذلك التوبة إذا جاءت منفردة؛ فإنها تتضمن الاستغفار؛ وهو طلب المغفرة باللسان.

وأما إذا قرنت بالاستغفار؛ فيكون معناها: الرجوع إلى الله تعالى ـ كما ذكرت ـ، ويكون معنى الاستغفار: طلب المغفرة، والله أعلم.

قال ابن القيم (٤): الاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله؛ وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره.

وقال (٥): وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى؛ فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل

---

(١) المائدة: ٣٩.

(٢) المائدة: ٧٤.

(٣) هود: ٢.

(٤) «المدارج» (١ / ٣٠٧).

(٥) «المدارج» (١ / ٣٠٨).

من سيئات أعماله اهـ.

وقال السعدي[1]: (الاستغفار): طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة؛ فهو الاستغفار الكامل الذي رتبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة؛ فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب، وهو بنفسه عبادة من العبادات؛ فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة.

(فائدة): قال شيخ الإسلام[2]: ومن المعلوم أن الله قد يغفر الذنوب بالتوبة، وقد يغفرها بالحسنات أو بالمصائب، وقد يغفرها بمجرد استغفار العبد، وسؤاله أن يغفر له، فهٰذه مغفرة من عنده.

فصل

في سيد الاستغفار

قال البخاري رحمه الله في «صحيحه»[3]: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا الحسين، حدثنا عبد الله بن بُرَيدة، حدثني بُشير بن كعب العدَويُّ؛ قال: حدثني شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ! أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، اغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ».

قال: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِناً بِها، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؛ فَهُوَ

---

(١) «خلاصة تفسير القرآن» (ص ٢٠٢).

(٢) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ١١٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٣١٩).

(٣) (١١ / ٩٧ و١٣٠ ـ فتح).

مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».

قال ابن القيم(1): تضمن هٰذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلٰهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه العالِم به، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده؛ الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا وليّ له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده؛ وهو أمره ونهيه؛ الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذٰلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المُقِلِّ، وقدر الاستطاعة، ومع ذٰلك فأنا مصدق لوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك.

ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرَّطت فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تعذني من شره؛ وإلا أحاطت بي الهلكة، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك عليّ، وأقر وألتزم وأَبْخَعُ(2) بذنبي، فمنك النعمة والإحسان والفضل، ومني الذنب والإساءة، فأسألك أن تغفر لي؛ بمحو ذنبي، وأن تعفيني من شره، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فلهٰذا كان هٰذا الدعاء؛ «سيد الاستغفار»، وهو متضمن لمعنى العبودية.

وقال ابن أبي جمرة(3): جمع ﷺ في هٰذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ؛ ما يحق له أن يسمى «سيد الاستغفار»؛ ففيه الإقرار لله وحده بالإلٰهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه(4)،

(1) «المدارج» (1 / 221 - 222).

(2) (بَخَعَ له بَخْعاً وبُخُوعاً وبَخَاعَةً): تذلل له وأطاع وأقر.

(3) «فيض القدير» (4 / 120).

(4) على لسان رسوله ﷺ وهو الأمر والنهي - كما تقدم آنفاً من كلام ابن القيم -، وكذا عهده سبحانه الذي أخذه على بني آدم يوم استخرج ذريتهم من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام؛ كما في =

والرجاء بما وعد به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو.

وقال: ويظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون «سيد الاستغفار»؛ إذا جمع صحة النية والتوجه والأدب.

فصل

ومن صيغ الاستغفار الجامعة؛ قول النبي ﷺ:

«اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإِسْرافِي فِي أَمْرِي، وما أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وكُلُّ ذٰلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، وما أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(1).

فصل

وفي شأن الاستغفار وعاقبته؛ قال رسول الله ﷺ:

«طُوبى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفاراً كَثِيراً»(2).

وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ؛ فَلْيُكْثِرْ فِيها مِنَ الاسْتِغْفارِ»(3).

= قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(1) أخرجه البخاري (١١ / ١٩٦ ـ فتح)، ومسلم (٢٧١٩)، وغيرهما.

(2) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٤٥٥)، وابن ماجه (٣٨١٨)، وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٣٨٢٥).

(3) أخرجه الضياء في «المختارة» (١ / ٢٩٧)؛ كما في «السلسلة الصحيحة» تحت الحديث رقم (٢٢٩٩).

فصل

في أن باب التوبة مفتوح ورحمة الله واسعة

قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾(٢).

ووصف تعالى نفسه بأنه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٤).

وجاء اسم الله تعالى: «التواب» في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً، منها:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٥).

وجاء اسمه تعالى: «الغفور» أكثر من تسعين مرة، منها سبع وسبعون مرة قرن باسمه تعالى «الرحيم»؛ الذي تكرر في القرآن الكريم أكثر من مئة مرة.

فهٰذا مما يدل على سعة رحمة الله تعالى، ورأفته بعباده، وعظيم فضله

---

(١) الأعراف: ١٥٦.

(٢) غافر: ٧.

(٣) غافر: ٣.

(٤) الحجر: ٤٩.

(٥) التوبة: ١٠٤.

عليهم.

وقال سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بالليْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها»[2].

* * * * *

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) وغيره.

فصل

في شروط التوبة

اعلم أن التوبـة الصحيحة المقبولة عند الله تعالى، الموعود صاحبها بالمغفرة والثواب العظيم، لها شروط ثمانية:

الشرط الأول: النية؛ بأن تكون نيته في توبته خالصة لوجه الله تعالى؛ محبة له، أو حياء منه، أو إجلالاً وتعظيماً لشأنه، أو خوفاً من عقابه الدنيوي أو الأخروي، أو رغبة فيما أعده للتائبين من خيري الدنيا والآخرة؛ فكل ذٰلك من النيات الصالحة، وأكملها أن يجمع ذٰلك كله، فيتوب محبة لله تعالى، وخوفاً منه، ورجاءً لثوابه.

ومن الأدلة على اشتراط النية؛ قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[1].

وهٰذا الأمر يعم كل العبادات دون استثناء، ومن أعظمها عبادة التوبة، بل إن التوبة إذا كملت وشملت فهي الدين كله.

وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية[2].

---

(١) البينة: ٥.

(٢) النور: ٣١.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾(١).

فقوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ﴾ في هاتين الآيتين وشبههما يتضمن معنى إخلاص النية في التوبة لوجه الله تعالى، لا لمقصد آخر من سلامةٍ من آفات الدنيا أو رياء أو سمعة، أو نحو ذٰلك من المقاصد الفاسدة ـ أفاده السعدي(٢) ـ.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوى» الحديث(٣).

وقال ﷺ: «قَالَتِ المَلاَئِكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً ـ وهو أبصر به ـ، فَقالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوها لَهُ بِمِثْلِهَا، وإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوها لَهُ حَسَنَةً، إِنَّما تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»(٤).

والشاهد من الحديث؛ قوله تعالى: «إِنَّما تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»، و«جَرَّايَ»: بفتح الجيم وتشديد الراء؛ أي: من أجلي ـ قاله المنذري(٥) والنووي(٦) ـ.

وقال المناوي(٧): «من جَرَّايَ»: أي من أجلي، وإن تركها لأمر آخر صدَّ عنها فلا اهـ.

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٣ / ٣٩٧).

(٣) حديث صحيح مشهور، أخرجه الستة وغيرهم، وهو أول حديث في «صحيح البخاري»، وأورده في ستة مواضع أخر. وقال النووي: وهو حديث مجمع على عظمته وجلالته، وهو أحد قواعد الدين، وأول دعائمه، وأشد أركانه، وهو أعظم الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

(٤) أخرجه مسلم (١٢٩) وغيره.

(٥) «الترغيب والترهيب» (١ / ٦٠).

(٦) «شرح مسلم» (٢ / ١٤٨).

(٧) «فيض القدير» (٤ / ٤٧٤).

فمن ترك الخمر خوفاً من قرحة المعدة؛ فليس بتائب، ومن ترك التدخين خوفاً من السرطان؛ فليس بتائب، ومن ترك السرقة لعدم القدرة؛ فليس بتائب، نعم لو ترك المذنب ذنبه؛ خوفاً من أن يعاقبه الله تعالى بالمرض أو غيره؛ مستحضراً ذٰلك؛ لكانت هٰذه نية صالحة، إذ أنه خاف من الله عز وجل، وترك ذنبه خشية عقوبته، وإن كان ثَم نيات أكمل من هٰذه وأحب إلى الله عز وجل.

(فائدة جليلة): قال ابن القيم[1]: إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد مَنْ تركها لغير الله، أمَّا مَن تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله؛ فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة؛ لِيُمْتَحَن أصادق هو في تركها أم كاذب؟ فإن صبر على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة. قال ابن سيرين: سمعت شريحاً يحلف بالله: ما ترك عبد لله شيئاً فوجد فقده. وقولهم: من ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه حق[2]، والعوض أنواع مختلفة، وأجَلُّ ما يُعوّض به الأنس بالله ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوَّتُه ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى.

فصل

الشرط الثاني من شروط التوبة: الإقلاع عن الذنب، إذ يستحيل تصور التوبة مع مباشرة الذنب؛ إلا أن تكون توبة الكذّابين، فإن أحدهم يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، وهو يباشر الذنب قلباً وقالباً.

والشرط الثالث: الندم، فلا تصح التوبة بدونه؛ إذ من لم يندم على الذنب؛ فذٰلك دليل رضاه به، وإصراره عليه، فأين التوبة؟! ولو كره الذنب صدقاً، واستقبحه حقّاً؛ لندم عليه؛ بمعنى: تَوَجَّعَ قلبُهُ على فعل الذنب؛

---

(١) «الفوائد» (ص ١٤١).

(٢) صح نحو هٰذا عن النبي ﷺ؛ انظر: (ص ١٩٧).

تحسراً وتأسفاً وكراهة له.

وعن عبد الله بن معقل؛ قال: دخلت مع أبي على عبد الله [بن مسعود]، فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ:

«النَدَمُ تَوْبَةٌ». فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»؟ قال: نعم(1).

والندم أعظم أركان التوبة، وهو شيء متعلق بالقلب، والجوارح تبع له، فإذا ندم القلب انقطع عن المعاصي؛ فرجعت برجوعه الجوارحُ ـ أفاده المناوي(2) ـ.

وقال: من ألفاظهم البليغة: مخلب المعصية يقص بالندامة، وجناح الطاعة يوصل بالإدامة.

وفي «المدهش»(3): يا من يخطي على نفسه ويقترف! متى تندم وتعترف؟ يا من بحب العاجلِ قد كَلِف! ستعلم غداً جفن من يكف، يا محبوساً في سجن الهوى! لو ارعوى أَنِفَ، يا متردداً في التوبة! سارع ولا تقف، إلى متى أعمالك كلها قباح؟ إلى كم فساد؟ متى يكون الصلاح؟ ستفارق هٰذه الأجساد الأرواح؛ إما في غدو وإما في رواح، سيفنى هٰذا المساء والصباح، وسيخلو البِلى بالوجوه الصِّباح.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله! ما النجاة؟ قال:

---

(1) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، والحاكم (٤ / ٢٤٣) وصححه، وأحمد (١ / ٣٧٦ و٤٢٣ و٤٣٣)، وصححه أحمد شاكر (٥ / ١٩٤)، والألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٦٦٧٨).

(2) «فيض القدير» (٦ / ٢٩٨).

(3) (ص ٥١٧).

«أَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ على خَطِيئَتِكَ»(1).

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«طُوبى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ، وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ»(2).

وفي «المدهش»(3): من تفكر في ذنوبه بكى، ومن تلمح سير السابقين وانقطاعه شكا.

وفي «التبصرة»(4): يا نادماً على الذنوب! أين أثر ندمك؟! أين بكاؤك على زلة قدمك؟! أين حذرك من أليم العقاب؟! أين قلقك من خوف العتاب؟! أتعتقد أن التوبة قول باللسان؟! إنما التوبة نار تحرق الإنسان(5)، جرِّد قلبك من الأقذار، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حله حلة الانكسار.

وفيها: اعلم أن التائب المحقق يشغله تنظيف ما وسخ، والحزن على ما فرط؛ عن تصور زلة ثانية.

يا هٰذا! اكتب قصة الرجوع، بقلم النزوع، بمداد الدموع، واسع بها على قدم الخضوع، إلى باب الخشوع.

---

(1) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن، وأحمد (٥ / ٢٥٩)، وغيرهما، وأخرجه أحمد ـ أيضاً ـ من طريقين آخرين (٤ / ١٤٨ و١٥٨)، وبهما حسنه الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٥٨٢).

(2) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢١٢ ـ الروض)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٩٩): رواه الطبراني في «الأوسط» و« الصغير» وحسن إسناده. وكذا حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٢٤).

(3) (ص ٣٣٠).

(4) (١ / ٣٦٢).

(5) أي: تحرق منه الشهوات المحرمة.

وفيها[1]: اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه؛ زاد مقته لنفسه على قبح زلته، فمنهم من قويَ مقته لها، ورأى تعريضها للقتل مباحاً في بعض الأحوال، فعرَّضها له؛ كما فعل ماعز والغامدية[2].

---

(١) (١ / ٣٦٠).

(٢) روى مسلم (١٦٩٥) وغيره عن بريدة رضي الله عنه؛ قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! طهرني. فقال: «وَيْحَكَ! ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ». قال: فرجع غير بعيد. ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني. فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة؛ قال له رسول الله ﷺ: «مِمَّ أُطَهِّرُكَ؟». فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: «أَبِهِ جُنونٌ؟». فأُخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أَشَرِبَ خَمْراً؟». فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أَزَنَيْتَ؟». فقال: نعم. فَأَمَرَ به فرُجم. فكان الناس فيه فرقتين؛ قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز؛ أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس. فقال: «اسْتَغْفِروا لِماعِزِ بْنِ مالِكٍ». قال: فقالوا: غَفَرَ الله لماعز ابن مالك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ تابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ».

قال: ثم جاءته امرأة من غامدٍ من الأَزْدِ. فقالت: يا رسول الله! طَهِّرْني. فقال: «وَيْحَكِ! ارْجِعِي فاسْتَغْفِرِي اللهَ وتُوبي إِلَيْهِ». فقالت: أراك تريد أن تُرَدِّدَني كما رَدَّدْتَ ماعز بن مالك. قال: «وَمَا ذَاكِ؟». قالت: إنها حُبْلى من الزنى. فقال: «آنْتِ؟». قالت: نعم. فقال لها: «حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ». قال: فكَفَلَها رجل من الأنصار حتى وضعت. قال: فأتى النبيَّ ﷺ فقال: قد وَضَعَتِ الغامدية. فقال: «إِذاً لا نَرْجُمُهَا ونَدَعُ وَلَدَها صَغِيراً لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ». فقام رجل من الأنصار فقال: إليَّ رَضَاعُهُ يا نبيَّ الله! قال: فرجمها.

وفي رواية: فيقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فَتَنَضَّحَ الدَّمُ على وجه خالد، فَسَبَّها، فسمع النبيُّ ﷺ سبه إياها، فقال: «مَهْلاً! يَا خَالِدُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ».

وقول الأنصاري: (إليَّ رضاعه يا نبي الله!)؛ إنما قاله بعد الفطام؛ كما في رواية أخرى. قال النووي: وأراد بالرضاعة كفايته وتربيته، وسماه رضاعة مجازاً.
=

فصل

والشرط الرابع من شروط التوبة: أن يعزم العبد على عدم معاودة الذنب إلى الممات، فإن كان في باله أن يعود إلى الذنب في المستقبل، أو عند زوال عارض ما، فإن توبة مثل هٰذا لا تصح، وكثير من التائبين ليس عندهم إلا الشرط الثاني من شروط التوبة؛ وهو الإقلاع؛ ولٰكن إلى أجل، فيظن نفسه تائباً، ثم يعود إلى الذنب، فيرجع ويتوب بالإقلاع المزعوم، وهٰكذا، فيظن المغرور أنه مفتتن توّاب محمود؛ أنه كلما أذنب تاب، ولا يدري المسكين أنه ما تاب قط، إنما أقلع مدة؛ الله تعالى أعلم بطولها وسببها.

والشرط الخامس؛ وهو فيما إذا كان الذنب متعلقاً بمخلوق؛ فيجب إعادة الحقوق إلى أهلها، أو استحلالهم منها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لِأخيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليومَ قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دينارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ عَمَلٌ صالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ حَسَناتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[1].

السادس من شروط التوبة: عمل الصالحات بعدها، فإن التوبة إذا كانت صحيحة وصادقة؛ فإن صاحبها يبذل جهده في استدراك ما فاته من طاعة مولاه عز وجل، فيبادر إلى إصلاح أعماله وعيوبه، ومحو سيئاته وذنوبه، ويكثر من الأعمال الصالحات، ويجتنب الذنوب والسيئات؛ خشية أن يحل عليه عقاب الله عز وجل في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معاً؛ بحسب قبح جناياته، وعظم

= وقول النبي ﷺ: (صاحب مكس)، المكس: الجباية، وغلب استعماله فيما يأخذه أعوان الظلمة عند البيع والشراء.

(١) أخرجه البخاري (٥ / ١٠١ و١١ / ٣٩٥ - فتح) وغيره.

زلاته، وكثرة مخالفاته.

وفي تعليق المغفرة بالعمل الصالح قال الله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

قال السعدي(٥): أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع، والندم عليها؛ من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

وقال ابن كثير(٦): ﴿ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ﴾؛ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع، وعزم أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل.

وقال ابن القيم(٧): فإذا طالع العبد جنايته شمّر لاستدراك الفارط بالعلم

---

(١) طه: ٨٢.

(٢) القصص: ٦٧.

(٣) الفرقان: ٧١.

(٤) الأنعام: ٥٤.

(٥) «التيسير» (٢ / ٢٧).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ١٣٥ - ١٣٦).

(٧) «مدارج السالكين» (١ / ١٤١ - ١٤٣) بتصرف.

والعمل، وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص؛ وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَثِ الجناية؛ كتمحيص الذهب والفضة؛ وهو تخليصهما من خبثهما، ولا يمكن دخول الجنة إلا بعد هٰذا التمحيص؛ فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهٰذا تقول لهم الملائكة: **﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾**(١)، وقال تعالى: **﴿الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ﴾**(٢)؛ فليس في الجنة ذرة خبث.

وهٰذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة؛ فإن محصته هٰذه الأربعة وخلصته؛ كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين **﴿تتنزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائِكَةُ أَنْ لا تَخافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِروا بالجَنَّةِ الَّتي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فيها ما تَشْتَهي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فيها مَا تَدَّعونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾**(٣).

وإن لم تَفِ هٰذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه؛ فلم تكن التوبة نصوحاً ـ وهي العامة الشاملة الصادقة ـ، ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً ـ وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه ـ، وهٰذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه، ولم تكن الحسنات في كميتها وافية بالتكفير، ولا المصائب؛ وهٰذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما؛ مُحِّصَ في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له.

---

(١) الزمر: ٧٣.

(٢) النحل: ٣٢.

(٣) فصلت: ٣٠ ـ ٣٢.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار وتوابع ذٰلك.

الثالث: دعاء إخوانه له وصدقتهم عنه(١).

فإن لم تف هٰذه الثلاثة بتمحيصه؛ فلا بد من دخول الكير؛ رحمة في حقه؛ ليتخلص ويتمحص، ويتطهر في النار؛ فتكون النار طُهرة له وتمحيصاً لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه، وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصُفِّيَ ذهبه، وصار خالصاً طيباً؛ أُخرج من النار وأُدخل الجنة.

(نصيحة): قال ابن الجوزي(٢): الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فَجأَت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفىء تلك النار إلا ما كان من عين العين.

فصل

السابع من شروط التوبة: أن تكون قبل الغرغرة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ

---

(١) ثبت انتفاع الوالدين الميتين بصدقة ولدهما عنهما، وأما التصدق عن غيرهما ووصول ثواب ذلك إليه فإن إثباته يحتاج إلى دليل صحيح؛ فإن وجد فبها ونعمت؛ وإلا فإن هذا التصدق لا يشرع ولا يصل ثوابه إلى الميت.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٩٥).

﴿يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

قال ابن القيم[2]: «الجهالة» هٰهنا: جهالة العمد؛ وإن كان عالماً بالتحريم. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِي الله به فهو جهالة؛ عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السدّي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته[3].

قال محمد رشيد رضا[4]: اغتر الناس بظواهر هٰذه الأقوال في تفسير الآية؛ فصاروا يسوفون في التوبة، ويصرون على المعاصي، فترسخ في قلوبهم، وتأنس بها أنفسهم، وتصير ملكات وعادات يتعذر عليهم، أو يتعسر على غير الموفق النادر الإقلاعُ عنها؛ حتى يجيئهم الأجل الموعود.

ثم قال: المراد أن الإصرار والتسويف خطر؛ وإن كانت التوبة تقبل في كل حال اختيار، إذ الغالب أن المرء يموت على ما عاش عليه، فليحذر المغرورون.

وقال[5]: فكلما قرب وقت التوبة من وقت اقتراب الذنب؛ كان الرجاء

---

(١) النساء: ١٧ و١٨.

(٢) «المدارج» (١ / ٢٨٤).

(٣) قلت: قد دَلّ على أن قول الله تعالى: ﴿من قريب﴾؛ معناه: قبل الموت، قولُه عز وجل بعده: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت...﴾ إلخ. ويفسره ـ أيضاً ـ حديث ابن عمر الآتي.

(٤) ذكره الفقي ـ رحمه الله ـ في تعليقه على «المدارج» (١ / ٢٨٤).

(٥) «مختصر تفسير المنار» (٢ / ٣٤).

أقوى، وكلما بعد الوقت بالإصرار وعدم المبالاة والتسويف؛ كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح؛ لأن الإصرار قد ينتهي قبل حضور الموت بالرَّيْن والخَتم وإحاطة الخطيئة بصاحبها اهـ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ قال:

«إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(١).

أي: ما لم تبلغ الروح الحلقوم؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾(٢).

قال ابن القيم(٣): أما إذا وقع في السياق؛ فقال: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾؛ لم تقبل توبته، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار.

فصل

والثامن من شروط التوبة: أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها؛ ففي الحديث(٤):

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ بِالمَغْرِبِ باباً مَسِيرةُ عَرْضِهِ سَبْعُونَ عاماً للتَّوْبَةِ، لا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وابن حبان (٢ / ١٢ - إحسان)، والحاكم (٤ / ٢٥٧)، وأحمد (٢ / ١٣٢ و١٥٣)، وغيرهم. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ١٨٩٩).

(٢) الواقعة: ٨٣.

(٣) «المدارج» (١ / ٢٨٥).

(٤) بعض حديث أخرجه الترمذي (٣٥٣٥ و٣٥٣٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٧٠)، وأحمد (٤ / ٢٤٠ و٢٤١)، وغيرهم؛ عن صفوان بن عَسّال رضي الله عنه. وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢١٧٣ و٢٢٢٥).

يُغْلَقُ ما لم تَطْلُع الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ، وذٰلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إيْمانِها خَيراً﴾(١)».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها؛ تابَ اللهُ عَلَيْهِ»(٢).

فصل

قال النووي(٣): قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي؛ فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإن فقد أحد الثلاثة؛ لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي؛ فشروطها أربعة: هٰذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رَدَّه إليه، وإن كان حَدَّ قَذْفٍ ونحوه مَكَّنه منه، أو طلب عفوه، وإن كان غِيبة استحلّه منها(٤). ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذٰلك الذنب، وبقي عليه الباقي(٥) اهـ.

---

(١) الأنعام: ١٥٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٣) وغيره.

(٣) «رياض الصالحين» (٢ باب التوبة).

(٤) قال الألباني في تعليقه (ص ٣٨): هٰذا إذا لم يترتب على الاستحلال نفسه مفسدة أخرى؛ وإلا فالواجب حينئذٍ الاكتفاء بالدعاء له، وأما حديث «كفارة من اغتبته أن تستغفر له» فهو موضوع؛ كما بينته في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (رقم ١٥١٩).

(٥) قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (١ / ٢٧٥): والذي عندي في هٰذه المسألة: أن التوبة لا تصح من ذنب، مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر =

قلت: وقد ذكر بعضهم شروطاً أخرى للتوبة؛ كلها تعود إلى ما قدمته، وبالله التوفيق.

فصل
في التحقق من صحة التوبة

اعلم ـ وفقك الله ـ أنه ينبغي للعبد التائب أن يتحقق من صحة توبته، ويتأكد من صدقها، ويتهمها بأنواع التهم؛ لأنها ـ كما قال ابن القيم[1] ـ حق عليه، لا يتيقن أنه أدى هٰذا الحق على الوجه المطلوب منه؛ الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة عِلَّة وهو لا يشعر بها؛ كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله، فتاب للحال، لا خوفاً من ذي الجلال، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذٰلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله، وتعظيماً له ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، ومن البعد والطرد

لا تعلق له به، ولا هو من نوعه فتصح؛ كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً؛ فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفَضْل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة، وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس؛ فهٰذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهٰذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عَدَل عن نوع منه إلى نوع آخر.

(١) «المدارج» (١ / ١٨٥ ـ ١٨٧) باختصار.

عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة، فهٰذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضاً: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفَيْنَة بعد الفَيْنَة، وتذكر حلاوة مواقعته، فربما تنفس، وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطِيَ منشوراً بالأمان، فهٰذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة، لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أن لا يزال الخوف مصاحباً له، لا يأمن مكر الله طرفة عين.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهٰذا على قدر عظم الجناية وصغرها، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفاً؛ تقطع في الآخرة إذا حَقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب؛ إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هٰذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأُخِذَ فأُحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بداً، ولا عنه غناء، ولا منه مهرباً، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه

ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هٰذا مع حبة لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هٰذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جَبْره بها، وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحبَّ إلى سيده من هٰذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

فهٰذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذٰلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدَّعْوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله اهـ.

وقال ابن الجوزي(١): ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذٰلك، وهٰذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها، فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً.

وهٰذا أمر قلّ أن ينظر فيه تائب أو زاهد؛ لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة.

وقال(٢): أيها المذنب! إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج، ولا تقولن قد تبت وندمت، فهلاَّ زال عني من الجزاء ما أكره؟ فلعل توبتك ما تحققت.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) مختصراً.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٩٤ ـ ١٩٥).

وإن للمجـازاة زماناً يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضي أوانـه، فاصبر أيها الخاطىء حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس، فإذا عَصَرَتْه كفُّ الأسى، ثم تكررت دُفَعُ الغَسْلات حُكِم بالطهارة.

فصل

وكـل عبـد تاب إلى الله تعـالى من ذنب ـ أياً كان ذٰلك الذنب ـ توبةً صحيحةً مشروطة بما بينّا؛ فإن الله تعالى يتوب عليه، ويغفر ذنوبه؛ كما قال سبحانه:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

وقال سبحانه واصفاً نفسه الكريمة: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٣).

وفي حق غير التائبين قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾(٤).

وإن عاد العبد إلى الذنب؛ فعليه أن يأتي بالتوبة بشروطها، والله تعالى يتوب عليه.

---

(١) التوبة: ١٠٤.

(٢) غافر: ٣.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) النساء: ٤٨ و١١٦.

(فائدة): قال محمد رشيد رضا[1]: كثير من الناس يقع في الذنب، فيتوب ويستغفر، ثم يعرض له مرة أخرى، فيعود إليه، ثم يلوم نفسه ويندم ويستغفر وهلم جرا، فهٰؤلاء في أدنى طبقات التوابين، والنفس الباقية أرخص عندهم من النفس الفانية، وهم مع ذٰلك محل للرجاء؛ لأن لهم زاجراً من أنفسهم، يذكرهم دائماً بالرجوع إلى الله تعالى عقب كل خطيئة، فيوشك أن يقوى هٰذا الزاجر المذكِّر على الشهوات المزيِّنة للخطيئة، فإن كان تكرار الإثم يزيد الشهوة ضراوة والنفس جرأة، فتكرار تذكير العلم الصحيح يحدث فيها ألماً يقاوم تلك الضراوة بتقريع النفس، وتصوير سوء العاقبة لها، فتكون الحرب سجالاً، وأثر الآلام في النفس أقوى من أثر اللذات، فإما أن تنتصر الخواطر والزواجر بذٰلك؛ فيلحق صاحب هٰذه النفس ببعض تلك الطبقات التي صحت توبتها، وإما أن تنكسر أمام جند الشهوة حتى تحيط بصاحبها الخطيئة؛ فيكون من المصرين الهالكين.

(فائدة أخرى): قال شيخ الإسلام[2]: الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة، لا يستحضر معها ذنوبه، لٰكن إذا كانت نيته التوبة العامة، فهي تتناول كل ما يراه ذنباً؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً على فعل المأمور وترك المحظور، وكذٰلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور، فمن تاب توبة عامة؛ كانت مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلا أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس قبيحاً، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، بخلاف ما لو كان لو استحضره لتاب منه؛ فإنه يدخل في عموم التوبة.

---

(١) «مختصر تفسير المنار» (٢ / ٣٤ - ٣٥).

(٢) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ١٣٨ - ١٣٩) مختصراً.

وأما التوبة المطلقة؛ وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا يلتزم التوبة من كل ذنب، فهٰذه لا توجب دخول كل فرد، ولا تمنع دخوله؛ كاللفظ المطلق، لٰكن هٰذه تصلح أن تكون سبباً لغفران معين، كما لا تصلح أن تكون سبباً لغفرانه، بخلاف العامة؛ فإنها مقتضية للغفران العام.

* * * * *

فصل
في المبادرة بالخيرات قبل الممات

اعلم أن المبادرة بالخيرات، والمسارعة في الطاعات، والمسابقة بالتوبة إلى الله تعالى من المخالفات، والتنصل إليه من السيئات قبل الممات؛ هو شأن الفارّ إلى الله عز وجل، وهو ما تقتضيه لفظة: «ففروا»؛ فإنها تتضمن معنى المسارعة والمبادرة.

وقد أمر الله تعالى عباده بالمسارعة إلى التوبة، والمسابقة إلى المغفرة؛ فقال سبحانه:

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(٢).

قال القاسمي(٣): ﴿سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: بادروا بالتوبة من ذنوبكم، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم.

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) «محاسن التأويل» (١٦ / ٥١).

وقال ابن القيم[1]: المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى؛ وهي توبته من تأخير التوبة، وقلّ أن تخطر هٰذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هٰذا إلا توبة عامّة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد اهـ.

وفي «المدهش»[2]: وقوع الذنب على القلب؛ كوقوع الدهن على الثوب، إن لم تعجل غسله وإلا انبسط.

وفيه[3]: بادر التوبة من هفواتك قبل فواتك، فالمنايا بالنفوس فواتك، أعجب خلائق الخلائق؛ محسن في شبابه، فلما لاح الفجْر فَجَر، آه لموسم فاتَك، لقد ملأ الأكياس الأكياس.

وفيه[4]: يا من قد غلبته نفسه، وبطش بعقله حسه! استدرك صبابة اليقظة، وصح في سمع قلبك بموعظة.

يا نَفْسُ تُوبي فَإنَّ المَوْتَ قَدْ حَانا ... واعْصِ الهَوى فَالهَوَى ما زالَ فَتَّانا
أَمـا تَرَيْنَ المنايا كَيْفَ تَلْقُطُنَا ... لَقْطاً وَتُلْحِقُ أُخْرَانا بأُولانا
في كُلِّ يَوْمٍ لنا مَيْتٌ نُشَيِّعُهُ ... نرى بِمَصْرَعِهِ آثارَ مَوْتَانا

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٢) «المدهش» (ص ٣٥٧).

(٣) «المدهش» (ص ٣٥٤).

(٤) (ص ٣٧٥).

يا نَفْسُ ما لي وَلِـلأمـوالِ أَتْـرُكُهـا خَلْفِـي وأَخْـرُجُ مِنْ دُنْـيَايَ عُرْيانـا
ما بالُنـا نَتَعـامى عَنْ مَصـائِـرِنـا نَنْسى بغَفْلَتِنـا مَنْ لَيْسَ يَنْسَـانـا
نَزْدادُ حِرْصـاً وهٰـذا الـدَّهْـرُ يَزْجُـرُنا كَأَنَّ زاجِـرَنَـا بالحِـرْصِ أَغْـرانـا
أَيْنَ الـمُـلُوكُ وأَبْـنَـاءُ الـمُلُوكِ وَمَنْ كانَـتْ تَخِـرُّ لَهُ الأذْقَـانُ إِذْعـانـا
صاحَتْ بِهِمْ حادِثَاتُ الدَّهْرِ فانْقَلَبُوا مُسْتَبْـدِلِينَ مِنَ الأَوْطَـانِ أَوْطَـانـا
خَلَّوا مَدَائِـنَ كانَ العِـزُّ مَفْـرَشَهـا واسْتَفْـرَشُـوا حُفَـراً غُبْـراً وَقِيعـانـا
يا راكِضـاً في مَيادِينِ الهَـوى مَرِحـاً ورافِـلاً في ثِيابِ الـغَـيِّ نَشْـوانـا
مضى الـزَّمَـانُ وَوَلَّى العُمْرُ فِي لَعِبٍ يَكْفِيكَ ما قَدْ مَضى قَدْ كَانَ مَا كَانـا

وفي «لطائف المعارف»(١): يا من لا يقلع عن ارتكاب الحرام، لا في شهر حلال ولا في شهر حرام! يا من هو في الطاعات إلى وراء، وفي المعاصي إلى قدام! يا من هو في كل يوم من عمره شر مما كان في قبله من الأيام! متى تستفيق من هٰذا المنام؟! متى تتوب من هٰذه الأجرام؟! يا من أنذره الشيب بالموت وهو مقيم على الآثام! أما كفاك واعظ الشيب مع واعظ القرآن والإسلام؟! الموت خير لك من الحياة على هٰذه الحال، والسلام.

وفيه(٢): التوبة التوبة قبل أن يصل إليكم من الموت النوبة، فيحصل المفرِّط على الندم والخيبة، الإنابة الإنابة، قبل غلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة؛ فقد قرب وقت الفاقة، ما أحسن قلق التَّوَّاب! ما أحلى قدوم الغياب! ما أجمل وقوفهم بالباب!

---

(١) (ص ٢٧٥).

(٢) (ص ٣٦٢).

فصل

وحث الله تعالى عباده على الاستجابة له، والمسارعة إلى امتثال ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وعدم تأخير ذٰلك، فقال جل وعلا:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢).

قال السعدي(٣): أي: كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة؛ فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل؛ من جهة إلى جهة، ولٰكن الشأن كل الشأن؛ في امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهٰذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس؛ حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به؛ فهي الرابحة على الحقيقة، وهٰذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات، قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات؛ فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها.

ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات؛ فهو السابق في الآخرة إلى الجنات،

---

(١) الشورى: ٤٧.

(٢) البقرة: ١٤٨.

(٣) «التيسير» (١ / ١١٢).

فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل؛ من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها؛ ما رتب الله عليها من الثواب؛ قال: ﴿**أَيْنَمَا تكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**﴾؛ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله: ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذينَ أَحْسَنوا بالحُسْنى**﴾[1].

ويستدل بهٰذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل؛ كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة؛ من الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

وقال تعالى بعد أن ذكر ثواب الأبرار:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾[2].

قال ابن رجب[3]: لما سمع الصحابة رضي الله عنهم قول الله عز وجل: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ**﴾، ﴿**وسابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ والأَرْضِ**﴾؛ فهموا أن المراد من ذٰلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هٰذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هٰذه الدرجة العالية، فكان تنافسهم في درجات الآخرة، واستباقهم إليها، ثم جاء مَن بعدهم فعكس الأمر؛ فصار تنافسهم في الدنيا الدنية، وحظوظها الفانية.

قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا؛ فنافسه في الآخرة.

---

(١) النجم: ٣١.

(٢) المطففين: ٢٦.

(٣) «لطائف المعارف» (ص ٢٦٠) باختصار.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل.

وقال ـ أي: ابن رجب ـ(١): صاحب الهمة العالية، والنفس الشريفة التواقة؛ لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى، ولا يرجع عن مطلوبه ولو تلفت نفسه في طلبه، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

وقال(٢): العالي الهمة يجتهد في نيل مطلوبه، وبذل وسعه في الوصول إلى رضى محبوبه، فأما الخسيس الهمة فاجتهاده في متابعة هواه، ويتكل على مجرد العفو، فيفوته إن حصل له العفو منازل السابقين المقربين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْس: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَياتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«بادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، أَوْ يُمْسِي مُؤمِناً وَيُصْبِحُ كافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(٤).

قال النووي(٥): معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة، قبل تعذرها والاشتغال عنها؛ بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة؛ كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر.

---

(١) «لطائف المعارف» (ص ٢٦١).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٢٦٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٤ / ٣٠٦) وغيره، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «تحقيق اقتضاء العلم العمل» (ص ١٠٠).

(٤) أخرجه مسلم (١١٨) وغيره.

(٥) «شرح صحيح مسلم» (٢ / ١٣٣).

فصل
في بيان بعض فضائل التوبة

اعلم أن الفضائل كلها سببها التوبة، وما من خير في الدنيا والآخـرة إلا وهي سببـه، وما من شر في العالم سواء كان في النفس أو خارجها إلا وسببه الذنوب، ومتى حصلت التوبة؛ ارتفع شر الذنب، واندفعت عقوبته[1].

فمن فضائلها: أنها سبب نيل محبة الله عز وجل، وكفى بهٰذه الفضيلة شرفاً للتوبة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[2].

قال ابن جرير[3]: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ**﴾؛ المنيبين من الإدبار عن الله وعن طاعته؛ إليه وإلى طاعته.

وقال ابن القيم[4]: التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التـوبـة، وبهٰـذا استحق التائب أن يكون حبيب الله؛ فإن الله يحب

---

(١) تقدم في «الباب الأول» الكلام على شرور الذنوب وعقوباتها، نسأل الله النجاة منها؛ بمنه وكرمه.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) «جامع البيان» (٢ / ٤٠٣ ـ علمية).

(٤) «المدارج» (١ / ٣٠٦).

التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله مَن فَعل ما أَمر به، وتَرْكَ ما نهى عنه.

فإذاً؛ التوبة هي: الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ومن فضائلها: أنها سبب لنور القلب، ومحو أثر الذنب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ المُؤمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ في قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ واسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ منها، وإِنْ زادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذٰلِكُمُ الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كِتَابِهِ: ﴿**كَلَّا بَلْ رانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(1)]»[(2)].

ومن فضائلها: أنها سبب لإغاثة الله تعالى أصحابها بقطر السماء، وزيادة قوة قلوبهم وأجسامهم، فكما أن المعاصي توهن القلب وتضعفه شيئاً فشيئاً؛ فكذلك التوبة تقويه، والجسم يقوى تبعاً لقوة القلب عادة، ويضعف بضعفه.

قال الله تعالى على لسان هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ

---

(1) المطففين: ١٤.

(2) حديث حسن؛ كما تقدم في «الباب الأول ـ فصل في التحذير من المعاصي».

ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾(١).

ومن فضائل التوبة: أنها سبب الحياة الطيبة في الدنيا قبل الآخرة؛ من التوسعة في الرزق؛ بالمال والبنين والجنات والأنهار؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾(٢).

وقال سبحانه على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾(٣).

ومن فضائلها: أنها تجعل المذنب كمن لا ذنب له، فيرجع إلى التائب الخير الذي كان له قبل الذنب، ويمحى ذنبه وكأنه لم يكن، بل قد يرجع التائب أفضل مما كان عليه قبل التوبة، بحسب ما يصاحب توبته من الأعمال القلبية والبدنية المحبوبة إلى الله عز وجل؛ من خشية وبكاء وتذلل وانكسار وحياء من الله تعالى، ومسارعة إلى مرضاته.

وعن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»(٤).

ومن فضائل التوبة: أن الله تعالى ابتدأ بها أوصاف المؤمنين المبشَّرين

---

(١) هود: ٥٢.

(٢) هود: ٣.

(٣) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٣٠٦ / ح ٧٧٥) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٧٩).

بدخول الجنات، ونيل الكرامات؛ فقال سبحانه:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ومن فضائلها: أنها سبب دعوة الملائكة لأهلها بوقاية شر الجحيم، والفوز بالنعيم المقيم، فلمحبة الله تعالى لهم، ولرضاه عنهم؛ جعل المقربين من ملائكته يدعون لهم؛ فقال سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

ومن فضائل التوبة: أن الله عز وجل يفرح بها أعظم فرح وأجله وأرفعه وأكمله، فرح يليق بجلاله تعالى وكرمه وسعة رحمته وحلمه؛ فقال رسول الله ﷺ:

«للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كانَ عَلَى راحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ[3]، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْها طَعامُهُ وشَرابُهُ، فَأَيِسَ مِنْها، فَأَتى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّها، قَدْ أَيِسَ مِنْ راحِلَتِهِ، فَبَيْنا هُوَ كَذَلِكَ؛ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً

---

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) غافر: ٧ ـ ٩.

(٣) هي الواسعة الخالية من الناس والماء والنبات.

عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخطامِهَا[1]، ثُمَّ قالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وأَنا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ »[2].

قال ابن القيم[3]: هٰذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله[4].

وقال ـ رحمه الله ـ[5]: ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان؛ لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذٰلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال؛ هو تفاصيل التوبة وآثارها.

فصل

وبالجملة؛ فإن الله تعالى علق الخير والفلاح بالتوبة؛ فلا سبيل إلى نيل خيرات الدنيا والآخرة إلا بها؛ قال سبحانه:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[6].

ووصف سبحانه غير التائبين بالظلم؛ فقال جل ثناؤه:

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[7].

---

(١) هو الرباط يوضع على أنف الجمل ليُقاد به.

(٢) متفق عليه؛ انظر: «صحيح البخاري» (١١ / ١٠٢ ـ فتح)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٤ ـ ٢٧٤٧).

(٣) «مدارج السالكين» (١ / ٢١٠).

(٤) ولكلامه بقية؛ فمن شاء فليطلع عليها.

(٥) «المدارج» (١ / ٣٠٧).

(٦) النور: ٣١.

(٧) الحجرات: ١١.

قال ابن القيم[1]: قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسم ثالث البتة، وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات عمله اهـ.

ومن أراد معرفة فضائل التوبة على الحقيقة؛ فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، فإنه سيجد من راحة البال، وسرور القلب، ولذة العيش؛ ما لا يمكن وصفه بلسان، فصاحب التوبة الكاملة الصحيحة في جنة قبل جنة الآخرة، لا يشبهها شيء من متاع الدنيا البتة، ولو عرف العبد هٰذه الجنة، وما فيها من لذة وسرور ورضا؛ ما استبدل بها لذة المعصية المنقطعة المنغصة، ولٰكن غلبة الجهل، وحب العاجلة، وخسة النفس، ودنو همتها؛ جعلها تبيع الآجل بالعاجل، والغالي بالرخيص، والنفيس بالخسيس.

قال ابن القيم[2]: سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصَوْن العِرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قِواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفسّاق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصَوْن نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس،

---

(١) «المدارج» (١ / ١٧٨).

(٢) «الفوائد» (ص ١٩٨).

وانتصارهم وحميّتهم له إذا أُوذِيَ وظلم، وذبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخِطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به؛ لقدومه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحِرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووَجْد حلاوة الإيمان، ودعاء حَمَلة العرش ومَن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهٰكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروه بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهٰذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقّته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحَرِّ والعَرَق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله؛ أُخذ به ذات اليمين، مع أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين. و ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾[1].

* * * * *

(١) الحديد: ٢١، والجمعة: ٤.

فصل
فيما يعين على التوبة

اعلم أن **أعظم ما يعين على التوبة** إلى الله عز وجل، ويوجب الفرار إليه سبحانه: هو معرفة عظمته، ومطالعة معاني أسمائه وصفاته، وتدبرها وتفهمها، وبخاصة صفات الغضب والانتقام، والاعتبار بآثارها؛ مما أحله الله سبحانه بالأقوام السالفة، والأمم الخالية؛ من أنواع العقوبات، والنظر في ملكوت الأرض والسموات، وما خلق الله من شيء؛ مما يدل على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وعلو جده، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

وقد ذكر جل ثناؤه وتقدست أسماؤه هذه الأمور في «سورة الذاريات»، ثم قال بعده:

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾.

قال صديق حسن خان[1]: أي: إذا علمتم أن الله تعالى فرد لا نظير له؛ ففروا إليه، ووحِّدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

ومما يعين على التوبة: معرفة قدرها، وفوائدها، ومعرفة عقوبات المعاصي والإصرار عليها، وأنها سبب مقت الرب جل وعلا وسخطه، وسبب

---

(١) «فتح البيان» (١٣ / ٢١٠).

حرمـان البـركة، وفقدان الطمأنينة، ونقص الإيمان، وبغض الرحمٰن، وولاية الشيطان، وسبب الهم والغم والحزن والقلق والخوف، وتشعب الهموم، وتشتت القلب، وفساد العقل، وخراب الدنيا والدين، وخسارة الأولى والآخرة، وقد تقدم ذٰلك كله.

ومما يعين على التوبة: معرفة ما أعدّه الله تعالى لأهلها في الجنة؛ من النعيم المقيم؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: **﴿جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهـا الأنهـارُ خالِـدِينَ فيهـا أَبـداً﴾**[1]، **﴿أُكُلُهـا دائِمٌ وَظِلُّها﴾**[2]، **﴿فيها ما تَشْتَهِيهِ الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ﴾**[3]، أهلها **﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فيها على الأرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾**[4]، أزواجهم حور عين **﴿كَأَمْثالِ اللُّؤلُؤِ المَكْنُونِ﴾**[5]، وشرابهم **﴿مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتامُهُ مِسْكٌ وَفي ذٰلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ﴾**[6]، وطعامهم من كل ما يبغون، **﴿وفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾**[7]، **﴿لَهُمْ ما يَشاؤونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاءُ المُحْسِنِينَ﴾**[8].

فالجنة دار العيش الرَّضِيِّ، والفوز السرمدي، والنعمة الدائمة، واللذة الكـاملة، التي لا يعتـريها نقص بوجه، ولا تطرقها آفة بحال؛ كما قال الولي

---

(١) النساء: ٥٧ و١٢٢) وفي مواضع أخر.

(٢) الرعد: ٣٥.

(٣) الزخرف: ٧١.

(٤) الكهف: ٣١.

(٥) الواقعة: ٢٣.

(٦) المطففين: ٢٥ و٢٦.

(٧) الواقعة: ٢٠ و٢١.

(٨) الزمر: ٣٤.

الحميد سبحانه:

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

قال السعدي[2]: سميت الجنة دار السلام؛ لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات.

ويلزم من ذلك؛ أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام؛ بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون؛ من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون اهـ.

ومما يعين على التوبة: معرفة ما أعدّه الله عز وجل للعصاة في النار؛ من عذاب وأنكال، والتفكر فيه والاعتبار، فالنار دار العصاة والكافرين، ومثوى المتجبرين والمتكبرين.

الكافرون خالدون فيها أبد الآباد، والعاصون من أهلها لهم فيها آماد؛ بحسب ذنوبهم، وخبث نفوسهم.

هي العذاب الأكبر، والهول الأعظم، نار حامية، وداهية طامة، وعيدها أكيد، وعذابها شديد، فيا حسرة من دخلها! ويا ويح من لم يحذر منها! وقد جاءه النذير بمثل قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ

---

(1) الأنعام: ١٢٧.

(2) «التيسير» (٢ / ٦٨).

(3) التحريم: ٦.

بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤتَى بأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يا ابنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا واللهِ يا رَبِّ!» الحديث(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَها سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٥).

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ؛ حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ جَرَتْ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ» (يعني: مكان الدمع)(٦).

---

(١) الزمر: ١٦.

(٢) المزمل: ١٢ و١٣.

(٣) الأنبياء: ٤٦.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) وغيره.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) وغيره.

(٦) أخرجه الحاكم (٤ / ٦٠٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا الألباني في «الصحيحة» (٤ / ٢٤٥)؛ لشاهده الذي في «سنن ابن ماجه» (رقم ٤٣٢٤).

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ في دَارِ الدُّنْيا؛ لأفْسَدَتْ على أَهْلِ الدُّنيا معايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طعامُهُ؟»[1].

قال في «فيض القدير»[2]: والقصد بهذا الحديث وما أشبهه؛ التنبيه على أن أدوية القلوب؛ استحضار أحوال الآخرة، وأحوال أهل الشقاء وديارهم، فإن النفس مشغولة بالتفكر في لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من أحد إلا وله في كل حالة ونَفَس من أنفاسه شهوة سلطت عليه واسترقته، فصار عقله مسخراً لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة، أو مباشرة قضاء الشهوة، فعلاج ذلك أن تقول لقلبك: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده من أهوال الموقف، ثم عذاب جهنم وطعام أهلها وشرابهم فيها، يورد على فكره مثل هذا الحديث، ويقول: كيف تصبر على مقاساته إذا وقع، وأنت عاجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا؟ اهـ.

فإذا تفكر العبد بمثل هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، واستحضر بقلبه النار وأحوال أهلها، وشهد قلبُه ذلك؛ انخلع ـ كما قال ابن القيم[3] ـ من الذنوب والمعاصي، واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وابن حبان (٢٦١١ ـ موارد)، والحاكم (٢ / ٢٩٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (١ / ٣٣٨)، وضعفه الألباني.

(٢) «فيض القدير» (٥ / ٣٠٩).

(٣) «المدارج» (٣ / ٢٥١).

شهود النار من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فصل

ومن أعظم ما يعين على التوبة: «الصبر»، ومما ييسره على التائب: معرفة جزائه عند الله عز وجل؛ فأهله يوفون أجرهم بغير حساب؛ كما قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

والصابرون أحباء الله تعالى، وهو معهم بنصره وتأييده، وحفظه وكلاءته؛ كما قال سبحانه:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].

بل قد بين تبارك وتعالى؛ أن سبب دخول الجنة هو الصبر؛ فقال:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٤].

هٰذا؛ وفضائل الصبر كثيرة جداً، قد ذُكرت في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ ليس هٰذا موضع بسطها.

وفي «المدهش»[٥]:

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) آل عمران: ١٤٦.

(٣) البقرة: ١٥٣، والأنفال: ٤٦.

(٤) الرعد: ٢٣ و٢٤.

(٥) (ص ٤٧٣).

يا نَفْسُ ما هُوَ إِلَّا صَبْرُ أَيَّامٍ كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ
يا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيا مُبَادِرَةً وَخَلِّ عَنْهَا فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي

وفي «الفوائد» لابن القيم[1]: من تلمَّح حلاوة العافية؛ هانت عليه مرارة الصبر.

وفيه[2]: حبة المُشتهى تحت فخ التَّلف، فتفكَّر الذبح، وقد هان الصبر.

(تحذير): قال ابن القيم[3]: كل تائب لا بد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه؛ من هم أو غم أو ضيق أو حزن، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه؛ فينضغط لذلك، وينعصر قلبه، ويضيق صدره، فأكثر الخلق رجعوا من التوبة، ونكسوا على رؤوسهم؛ لأجل هذه العصرة، والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة، تكون على قدر هذه العصرة؛ فكلما كانت أقوى وأشد؛ كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم اهـ.

فصل

ومما يعين على التوبة: مراقبة الله عز وجل؛ بأن يعلم العبد أن الله سبحانه مطّلع على ظاهره وباطنه، علانيته وسره، لا تخفى عليه خافية؛ ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾[4]، ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[5]، وهو السميع العليم، واللطيف الخبير، والرقيب البصير، فيتفكر في ذلك، وأنه لو اطلع عليه

---

(١) (ص ٦٥).

(٢) (ص ٦٦).

(٣) «طريق الهجرتين» (ص ٤٣٨ ـ ط قطر).

(٤) الرعد: ٩، والسجدة: ٦، والحشر: ٢٢، والتغابن: ١٨.

(٥) غافر: ١٩.

رجل ممن يوقِّر لاستحيىٰ منه أن يراه على ما يكره؛ فكيف بالرب ذي الجلال والإكرام؟! الذي رباه بأصناف النعم، التي يعجز عن عدها: **﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾**[1]، **﴿وما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾**[2]، أليس هو سبحانه أحق أن يستحيي العبد منه؟ أم أنه لا يؤمن بأن الله تعالى يراه، ويعلم خفاياه، ويسمع سره ونجواه؟!

قال ابن القيم[3]:

وَهُـوَ السَّميعُ يَرى وَيَسْمَـعُ كُلَّ ما ... في الكَـوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ
وَلِكُـلِّ صَوْتٍ مِنْـهُ سَمْعٌ حَاضِـرٌ ... فَالسِّـرُّ والإِعْـلَانُ مُسْتَـوِيَانِ
والسَّمْـعُ مِنْـهُ واسِعُ الأَصْواتِ لا ... يَخْـفَـى عَلَيْهِ بَعِيدُهـا والـدَّانِي
وَهُـوَ البَصِيرُ يَرَى دَبيبَ النَّمْلَةِ السْـ ... ـسَوْدَاءِ تَحْـتَ الصَّـخْـرِ والصَّـوَّانِ
ويَرَى مَجَارِي القُوتِ في أَعْضَائِها ... وَيَرَى بياضَ عُرُوقِـهـا بِعِـيانِ
ويَرَى خِيانـاتِ العُيُونِ بِلَحْـظِهـا ... ويَرَى كَذاكَ تَقَـلُّبَ الأَجْـفَـانِ
وَهُـوَ العَلِيمُ أَحَـاطَ عِلْمـاً بِالَّـذي ... فِي الكَـوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ
وَبِـكُـلِّ شَيْءٍ عِلْمُـهُ سُبْحَـانَـهُ ... فَهُـوَ الـمُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ
وكَـذاكَ يَعْلَمُ ما يَكُـونُ غَداً ومـا ... قَدْ كانَ وَالـمَـوْجُودَ في ذا الآنِ
وكـذاكَ أَمْـرٌ لَمْ يَكُـنْ لَوْ كَا ... نَ كَيْفَ يَكُـونُ ذا إِمْـكَـانِ

فصل

ومما يعين على التوبة: الخوف من الله عز وجل، والحذر منه سبحانه أن يحل على العاصي غضبه، وينزل به سخطه ونقمه في الدنيا والبرزخ والآخرة.

---

(١) النحل: ١٨.

(٢) النحل: ٥٣.

(٣) «القصيدة النونية» (ص ١٤٦).

فليحذر العبد من الله تعالى أن يراه حيث نهاه، أو لا يجده حيث أمره، فهو سبحانه حقيق أن يخشى ويتقى؛ فهو العظيم الذي لا أعظم منه، والكبير الذي لا أكبر منه، والعزيز الذي لا يرام جنابه، وذو الانتقام الذي لا يقوم لغضبه شيء، قد خافه الأنبياء المصطفون، والملائكة المقربون، مع ما هم عليه من الجلالة، والطاعة لمولاهم تبارك وتعالى، أما نحن فقد أمِنَّا مع معاصينا؛ لغلبة جهلنا وغرورنا، وهم خافوه سبحانه؛ لعلمهم به وبعظمته وجلاله، وأنه هو القوي المتين، والعزيز الكبير، ﴿**ذُو العَرْشِ المَجِيدُ**﴾(١)، والبطش الشديد، قد وسع كرسيه سماواته وأرضه، ﴿**وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ**﴾(٢).

ومما يعين على التوبة: خوف مفاجأة الموت، قبل الاستعداد للرحيل، وقبل التزود للآخرة، والإكثار من ذكره، والتفكر فيه على الدوام، والتفكر في القبور والموتى والجنائز، وتخيل العبد أنه هو الميت والمحمول والمقبور، فإن لم يكن هو؛ فغداً أو بعده إلى مثل أمره سيصير، وإلى مثل حفرته سينتقل، وإن ظن استطالة الأمر، فالموت لا بد آت، وكل آت قريب، ولو عَمَّر عُمْر نوح عليه الصلاة والسلام.

وكَأَنْ بِالدَّاعِ يَبْكِي عَلَيْهِ أَقْرَبُوهُ
وكَأَنَّ القَوْمَ قَامُوا فَقَالُوا أَدْرِكُوهُ
سائِلُوهُ كَلِّمُوهُ حَرِّكُوهُ لَقِّنُوهُ
حَرِّفُوهُ وَجِّهُوهُ مَدِّدُوهُ غَمِّضُوهُ
عَجِّلُوهُ غَسِّلُوهُ كَفِّنُوهُ حَنِّطُوهُ
فَإِذَا ما لُفَّ في الأكْفَانِ قالُوا فَاحْمِلُوهُ

---

(١) البروج: ١٥.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

أَخْرِجُوهُ فَوْقَ أَعْوا دِ الْمَنَايَا شَيِّعُوهُ
فَإِذَا صَلَّوْا عَلَيْهِ قِيلَ هَاتُوا وَاقْبُرُوهُ
فَإِذَا مَا اسْتَوْدَعُوهُ الأَرْضَ رَهْناً تَرَكُوهُ
خَلَّفُوهُ تَحْتَ رَمْسٍ أَوْقَرُوهُ أَثْقَلُوهُ
أَبْعَدُوهُ أَسْحَقُوهُ أَوْحَدُوهُ أَفْرَدُوهُ
وَدَّعُوهُ فَارَقُوهُ أَسْلَمُوهُ خَلَّفُوهُ
وانْثَنَوا عَنْهُ وَخَلَّوْ هُ كَأَنْ لَمْ يَعْرِفُوهُ

وفي «لطائف المعارف»:

يا غَافِلَ القَلْبِ عَنْ ذِكْرِ المَنِيَّاتِ ... عَمَّا قَلِيلٍ سَتُلْقَى بَيْنَ أَمْوَاتِ
فاذْكُرْ مَحَلَّكَ مِنْ قَبْلِ الحُلُولِ بِهِ ... وَتُبْ إِلَى اللهِ مِنْ لَهْوٍ وَلَذَّاتِ
إِنَّ الحِمَامَ(١) لَهُ وَقْتٌ إِلى أَجَلٍ ... فَاذْكُرْ مَصَائِبَ أَيَّامٍ وَسَاعَاتِ
لا تَطْمَئِنَّ إِلى الدُّنْيا وزِينَتِهَا ... قَدْ آنَ للمَوْتِ يا ذا اللُّبِّ أَنْ ياتِي

وفي «الزهد» للإمام أحمد(٢): عن محمد بن كعب القرظي؛ قال: لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله، بعث إليَّ وأنا بالمدينة، فقدمت عليه، فلما دخلت جعلت أنظر إليه نظراً، لا أصرف بصري عنه متعجباً، فقال: يا ابن كعب! إنك لتنظر إليَّ نظراً ما كنت تنظره. قال: قلت: متعجباً. قال: ما أعجبك؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين! أعجبني ما حال من لونك، ونحل من جسمك، ونفى من شعرك. فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثة؟! وقد دُلِّيت في حفرتي، أو في قبري، وسالت حَدَقَتَيّ على وجنتَيّ، وسال مِنخري صديداً ودوداً، كنت لي أشد نكرة.

---

(١) أي: الموت.

(٢) (ص ٣٥٩).

فصل

في طريق تحقيق ذكر الموت

الطريق في ذٰلك ـ كما قال بعض الحكماء ـ: أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر؛ فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه، فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذٰلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قلبه.

وأنجع طريق فيه: أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلاً، وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد، والآن قد تهدَّمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق، وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك، وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه ـ إلى عشر سنين ـ في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشفت له صورة الملَك، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار، فعند ذٰلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرتَ الموتى فعدّ نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عز وجل، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلّف الأحباب، وقطع الأسباب.

فملازمة هٰذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى؛ هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذٰلك يوشك أن يستعد له، ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه.

والمقصود: أن ذكر الموت إذا تحقق به العبد؛ حمله على المسارعة بالتوبة، وترك التسويف بها؛ فتراه يغتنم الساعات، ويضن باللحظات؛ أن تذهب في غير ما ينفع في الآخرة، فضلاً عن أن يضيعها في المعاصي والآثام.

فصل

والأمور المعينة على التوبة يطول ذكرها، وقد أشرت إلى ما ينبه عليها، ولا بد أن يقال هنا: إن الأمر كله بيد الله تعالى؛ فهو الموفق للتوبة والمعين عليها، فعلى العبد أن يتوسل إليه سبحانه، ويستغيث به، ويدعوه أن ييسر ذٰلك له.

فالدعاء ـ والله ـ أصل كل خير، وهو بداية الطريق إلى الله عز وجل، فعلى العبد أن يطرح نفسه بين يدي مولاه، ويتذلل له، وينكسر لعظمته، ويدعوه سبحانه؛ بقلب خاضع خاشع، حاضر غير لاه؛ أن يوفقه لطاعته، ويتوب عليه، ويحبب التوبة إليه، ويكره إليه المعاصي المحبوبة له، والشهوات التي أسرته، ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وبألوهيته وربوبيته للعالمين؛ أن يتوب عليه،

ويحفظ له بقية عمره التي لا قدر لها، والتي إن فاتت؛ فاته كل خير.

وعلى العبد أن يكرر الدعاء في الليل والنهار، مخصصاً ساعات الإجابة؛ فيتعلمها ويتحرَّاها، ويلجأ إلى الله تعالى فيها، راغباً راهباً، فعسى نفحة من نفحات الغفور الودود تدركه، فيفوز فوز الأبد، ويسعد سعادة لا خطر لها.

فإن حصلت يا أخي! على هٰذا، وأصبحت تسمى تائباً، فأنت في نعمة عظيمة، لا يعلم قدرها إلا الله تعالى، فارعها وحافظ عليها، وعَضّ عليها بالنواجد، وخذها بقوة، واشدد عليها، وضِنَّ بها، واشكر من رزقك إياها ليزيدك منها؛ فإنها إن فاتت قد لا تدركها مرة أخرى.

وثَمَّ أمر تنبه له؛ وهو: أنك إن أخطأت وأذنبت بعد استيفائك شروط التوبة التي ذكرناها؛ فلا تيأس، وعد وجدد التوبة؛ فبابها مفتوح، وفي كل مرة تذنب؛ جدد التوبة[1]، وعد إلى الله عز وجل واستغفره، واعمل الصالحات، وجمّع الحسنات، وجاهد النفس، واغلب الشيطان، وكرر على قلبك مرّات ومرّات الأمور التي دلتك على التوبة، وأعانتك عليها، وارجع إليها من جديد.

والزم محاسبة نفسك، ولا تغفل عن ذٰلك أبداً، وما أُخِذْتَ إلا من إهمال المحاسبة والمراقبة لها.

فاحذر أخي! فقد عرفت الطريق، وبان لك السبيل، وما هي إلا أيام قليلة، وتجد ثمرة ما قدمت تنتظرك في الجنة، بل والله! في الدنيا قبل الآخرة، وستحمد عقبى أمرك، وعند الصباح يحمد القوم السرى، ﴿**وَالعَاقِبَةُ**

---

(١) وعلى العبد أن لا يركن إلى التوبة، ويجزم بصحتها؛ فإن من علامات صحتها: المسارعة إلى فعل الخيرات، أما أن يتوب اليوم ويرجع غداً، وهٰكذا؛ فهٰذا يدل على عدم صحة التوبة. وقد تقدم توضيح هٰذه المسألة؛ فليراجع، مع ما تقدم من شروط التوبة، وعلامات صحتها، ودلائل تهمتها.

لْلتَّقْوى﴾[1].

وحان الآن وقت البدء، بذكر العوائق التي تقف أمام العبد؛ فتمنعه من التوبة، أو تفسدها عليه إن تاب، فعلى الناصح لنفسه، الصادق في فراره إلى الله تعالى؛ أن يحذر منها، ويتنبه لشرها، ويحرس توبته منها؛ كما يحرس صاحب الكنز كنزه من اللصوص، والله تعالى الموفق لخير الدنيا والآخرة، لا إله غيره، ولا رب سواه.

* * * * *

---

(1) طه: ١٣٢.

الباب الثالث

في العوائق في طريق التوبة وكيفية التغلب عليها

العائق الأول: الشيطان

وهو عدو الإنسان الأكبر، وقائد حزبه إلى النار، ومقدمهم إليها، وقد أخبرنا الرحمٰن الرحيم بعداوته إيانا؛ محذراً من طاعته وموالاته، آمراً بمجاهدته ومعاداته؛ فقال جل ثناؤه:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: أي: هو مبارز لكم بالعداوة؛ فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه، وكذبوه فيما يغركم به. ﴿إِنَّما يَدْعو حِزْبَهُ لِيَكُونوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهٰذا هو العدو المبين، نسأل الله القوي العزيز؛ أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3].

قال ابن جرير[4]: ﴿ولا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾؛ يقول جل ثناؤه: ولا

(١) فاطر: ٦.

(٢) «تفسيره» (٣ / ٥٥٥).

(٣) الزخرف: ٦٢.

(٤) «جامع البيان» (١١ / ٢٠٦ ـ علمية).

يعدلنكم الشيطان عن طاعتي فيما آمركم وأنهاكم، فتخالفوه إلى غيره، وتجوروا عن الصراط المستقيم فتضلوا، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ يقول: إن الشيطان لكم عدو، يدعوكم إلى ما فيه هلاككم، ويصدكم عن قصد السبيل؛ ليوردكم المهالك، ﴿مُبِينٌ﴾؛ قد أبان لكم عداوته، بامتناعه من السجود لأبيكم آدم، وإدلائه بالغرور؛ حتى أخرجه من الجنة حسداً وبغياً.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

قال الطبري[2]: يقول: إن الشيطان كان لآدم وذريته عدواً، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه؛ حتى أخرجه من الجنة.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[3].

قال السعدي[4]: يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكةَ بالسجود لآدم؛ إكراماً وتعظيماً، وامتثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾[5]، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾[6].

فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم، فكيف تتخذونه وذريته؛ أي: الشياطين

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) «جامع البيان» (٨ / ٩٣ - علمية).

(٣) الكهف: ٥٠.

(٤) «التيسير» (٣ / ١٦٤).

(٥) الإسراء: ٦١.

(٦) الأعراف: ١٢ وص: ٧٦.

﴿أَوْلِياءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾؛ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر؛ عن ولاية الرحمٰن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وفي هٰذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذٰلك، وذكر السبب الموجب لذٰلك، وأنه لا يفعل ذٰلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليّاً، وترك الولي الحميد؟!!

فصل
في جهاد الشيطان ومراتبه

قال ابن القيم[1] في قول الله تعالى: ﴿وجاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾[2]: حق جهاده: أن يجاهد العبد نفسه ليُسْلِم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله وبالله، لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانِيَّ، ويُمَنِّي الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجهاده بتكذيب وعده، ومعصية أمره؛ فينشأ له من هٰذين الجهادين قوة وسلطان وعُدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

وقال ـ رحمه الله ـ[3] في قوله تعالى: ﴿والَّذينَ جَاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

---

(١) «زاد المعاد» (٣ / ٨).

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) «الفوائد» (ص ٧٨).

﴿سُبُلَنَا﴾[1]: عَلَّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هٰذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

وقال: ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر؛ إلا من جاهد هٰذه الأعداء باطناً، فمن نُصِر عليها نُصِر على عدوه، ومن نُصِرَت عليه نُصِر عليه عدوُّه.

فصل

وجهاد الشيطان ـ كما قال ابن القيم[2] ـ مرتبتان:

إحـداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهاد الأول يكون بعدَّة اليقين، والثاني يكون بعدَّة الصبر، قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَروا وكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾**[3].

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) «زاد المعاد» (٣ / ١٠).

(٣) السجدة: ٢٤.

فصل

في النهي عن اتباع خطوات الشيطان

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[(٢)].

قال ابن كثير[(٣)]: **﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّبعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾**؛ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به، **﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ﴾**؛ هٰذا تنفير وتحذير من ذٰلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها.

وقال السعدي[(٤)]: وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى أن بيَّن الحكم؛ وهو النَّهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة: وهي بيان ما في المنهي عنه من الشر؛ المقتضي والداعي لتركه؛ فقال: **﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ﴾**؛ أي: الشيطان **﴿يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾**؛ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه، **﴿وَالمُنْكَرِ﴾**؛ وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذٰلك، فنهى الله عنها العباد نعمة منه، عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأن ذٰلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم؛ أن نهاهم عنها؛ كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها.

---

(١) البقرة: ١٦٨ و٢٠٨، والأنعام: ١٤٢.

(٢) النور: ٢١.

(٣) «تفسيره» (٣ / ٢٨٦).

(٤) «التيسير» (٣ / ٣٩٠).

فصل

في شرور الشيطان

الشيطان سبب الشرور كلها، ولا يمكن الإحاطة بأنواع شره، بَلْهَ أفرادها؛ فمن شره: أنه وسوس لأبوينا عليهما الصلاة والسلام وأزلهما حتى أخرجهما من الجنة، وما زال يسعى جاهداً في إضلال بنيهما، حتى يشاركه في عذاب السعير أكبر عدد منهم.

وقد ذكر الله تعالى قصة الأبوين عليهما السلام مع إبليس؛ فقال سبحانه:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(١).

وحذرنا الله تعالى هٰذا العدو المبين؛ الذي أخرج أبوينا من الجنة، ونهانا

---

(١) الأعراف: ١٩ ـ ٢٤.

أن نطيعه فيما يأمر به من معصية الله تعالى؛ فقال سبحانه:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾(١).

ومن شر الشيطان: إضلاله للناس عن الحق والخير، وصده إياهم عن سبيل الرشد؛ قال تعالى:

﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾(٣).

وقال سبحانه على لسان هدهد سليمان واصفاً أهل سبأ:

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾(٤).

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى:

«إِنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهُمْ، وإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّياطينُ، فاجْتالَتْهُمْ(٥) عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ ما أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكوا بِي ما لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً»(٦).

ومن شره: أنه يأمر بالبخل، ويمنع من الإنفاق، ويأمر بالفواحش

---

(١) الأعراف: ٢٧.

(٢) النساء: ٦٠.

(٣) العنكبوت: ٣٨.

(٤) النمل: ٢٤.

(٥) في لفظ أحمد: «فأضلتهم».

(٦) بعض حديث أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وغيره.

والمنكرات؛ قال تعالى:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (٢).

ومن شره: الإفساد بين المؤمنين بكل طريق وحيلة؛ قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣).

قال الطبري(٤): يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضاً: ﴿يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾؛ يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر.

ومن شره: الصد عن ذكر الله تعالى، وعن الصلاة؛ التي هي عمود الدين، وإيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وذلك بما يأمر به من المنكرات؛ كالخمر والميسر؛ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (٥).

ومن شره: أنه يزين للناس المعاصي، حتى يغيبهم عن قبحها، وعن موجباتها من عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، فيستحسنوها ويركبوها مستهينين بها؛ قال الله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

(٢) النور: ٢١.

(٣) الإسراء: ٥٣.

(٤) «جامع البيان» (٨ / ٩٣ - علمية).

(٥) المائدة: ٩١.

﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

قال ابن القيم[2]: إن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويُخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنِّيه، ويشهِّيه؛ فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليه؛ فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له، ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية، والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذٰلك؛ فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حرّكهم، وإن وَنَوا أزعجهم؛ كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ على الكافِرينَ تَؤزُّهُمْ أزّاً﴾**[3]؛ أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، كلما فتروا أو وَنَوا؛ أزعجتهم الشياطين وأزَّتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة اهـ.

ومن شر الشيطان: ما يلقيه في نفس العبد وهو نائم من حب الدنيا، وتعظيم شأنها، والصد عن الآخرة، وتحسين المعاصي، وتزيين الشهوات، فيأتي العبدَ عن طريق الأحلام الشيطانية، فيُحَسِّن له شهوة قد تاب منها، ويزينها له، أو يذكره بمعشوقٍ كاد أن ينساه، وغير ذٰلك من الدعوة إلى المعاصي والصد عن الخيرات؛ بالطرق الخفيات والظاهرات، فيمسي العبد تائباً، ويصبح خائباً، ويمسي مخلصاً، ويصبح مرائياً.

---

(١) الأنعام: ٤٢ و٤٣.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٥٧ - ٢٥٨).

(٣) مريم: ٨٣.

وشأن المنامات الشيطانية الصادة عن الخير، المثبطة عن السير؛ معلومة لكل عاقل، ومع هٰذا لا يكاد يتنبه إليها إلا القليل من الناس؛ فلا ينجو من شرها إلا من حفظه الله تعالى.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ قال:

«إنَّ الرُّؤيا ثلاثٌ: منها أهاويلُ[1] مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ بها ابنَ آدَمَ، ومِنْها ما يَهُمُّ بِهِ الـرَّجُلُ فِي يقَظَتِهِ فَيراهُ فِي مَنَامِهِ، ومِنْها جُزْءٌ مِنْ ستَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»[2].

وعن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال:

«إذا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤيا يَكْرَهُها؛ فلْيَبْصُقْ عَنْ يَسارِهِ ثَلاثاً، ولْيَسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ ثَلاثاً، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذي كانَ عَلَيْه»[3].

ومن شره: أنه إذا نام العبد؛ عقد على رأسه عقداً ليمنعه من القيام إلى الخيرات؛ من قيام وتلاوة وذكر واستغفار، وأداء فريضة الفجر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نامَ ثلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى مكانِ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ ليلٌ طَويلٌ فارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ؛ فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ»[4].

---

(١) جمع أهوال؛ جمع هول؛ كأقاويل: جمع أقوال؛ جمع قول.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وابن حبان (٧ / ٦١٥ - إحسان)، وغيرهما. وصحح الألباني إسناده في «الصحيحة» (٤ / ٤٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٦٣) وغيره.

(٤) أخرجه البخاري (٣ / ٢٤ و٦ / ٣٣٥ - فتح)، ومسلم (٧٧٦)، وغيرهما.

ومن شره: أنه يبول في أذن العبد؛ حتى ينام إلى الصباح؛ فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنه قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجلٌ نام ليلة حتى أصبح، قال:

«ذاكَ رَجُلٌ بالَ الشَّيْطَانُ في أُذُنَيْهِ» أو قال: «أُذُنِهِ»(1).

ومن شره: أنه يوسوس للعبد في طهارته وصلاته، حتى يوقعه بما يشبه الجنون؛ من البدع والأصرار التي تفتك بقلب العبد فتكاً عجيباً، وتصده عن الحق، وتضيع عليه الوقت؛ فيما فيه ضرره في الدنيا والآخرة، وليس فيه نفع له بوجه من الوجوه، فترى من الموسوسين من يعالج نفسه في وضوئه وصلاته بمشقة شديدة جداً، يجزم من يراه أنه مجنون.

حدثني أحدهم عن نفسه؛ قال: إنني إذا وقفت للصلاة، وأردت أن أكبر؛ أكاد أبول قبل أن أقول: «الله أكبر»؛ لشدة وسوسة الشيطان في صدري، ومنعه إياي من التكبير موسوساً إليّ أنني لم آتِ بالنية.

ورأيت بعيني موسوساً يجلس للوضوء، وقبل أن يبدأ وضوءه يقوم، ثم يجلس، ثم يقوم؛ يفعل ذٰلك حوالي عشر مرات، ثم يتوضأ، ويدلك كل عضو من أعضائه دلكاً عجيباً جداً؛ كأنه يرى على يديه شيئاً لا يستطيع إزالته، ولا يراه غيره، وإذا مسح رأسه مسحه مراراً ـ أكثر من ثلاث ـ، حتى يظن من رآه أنه غمره في بركة ماء.

ورأيت من الموسوسين في الاستنجاء؛ من يقف بعد أن يبول، ويمسك ذكره من تحت ثيابه، ويمشي حوالي عشر خطوات ذهاباً، ثم مثلها إياباً، ويفعل ذٰلك أكثر من مئة مرة؛ أعني: لو مشى هٰذه الخطوات باتجاه واحد، لابتعد عن

---

(1) أخرجه البخاري (٣ / ٢٨ و٦ / ٣٣٥ ـ فتح)، ومسلم (٧٧٤)، وغيرهما.

مكانه أكثر من ألف متر. ويقف أثناء ذٰلك، ويمسك حجرين ويدلكهما؛ كأنه يريد أن يخرج منهما شرارة نار، ولا أدري ماذا يفعل بهما بعد ذٰلك بذكره! وأثناء ذٰلك قد ينادي المؤذن، وتقام الصلاة، وتنتهي الجماعة الأولى، وجماعات أخرى غير مشروعة، وما زال الأخ يتنحنح ذهاباً وإياباً، وإذا قيل له: ماذا تفعل؟! قال: لا بد أن تنزل النقطة!! وليس هٰذا فقط؛ بل ربما يرى من مرّ به عورته المغلظة.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»(1): ذكر أبو الفرج ابن الجوزي، عن أبي الوفاء بن عقيل؛ أن رجلاً قال له: أنغمس في الماء مراراً كثيرة، وأشك؛ هل صح لي الغسل أم لا، فما ترى في ذٰلك؟ فقال له الشيخ: اذهب؛ فقد سقطت عنك الصلاة. قال: وكيف؟ قال: لأن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثلاثَـةٍ: المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، والنَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، والصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ»(2)، ومن ينغمس في الماء مراراً، ويشك؛ هل أصابه الماء أم لا، فهو مجنون.

وقال(3): قال شيخنا(4): ومن هٰؤلاء من يأتي بعشر بدع، لم يفعل رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه واحدة منها، فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، نويت أصلي صلاة الظهر فريضة الوقت، أداء لله تعالى، إماماً أو مأموماً، أربع ركعات، مستقبل القبلة، ثم يزعج أعضاءه، ويحني جبهته، ويقيم عروق عنقه، ويصرخ بالتكبير؛ كأنه يكبر على العدو، ولو مكث أحدهم عمر

(1) (1 / 134).

(2) حديث صحيح، وقد ورد من حديث عائشة وعلي وأبي قتادة الأنصاري؛ كذا قال الألباني في «الإرواء»، ولتراجع ألفاظ الحديث فيه تحت الرقم (297).

(3) أي: ابن القيم؛ «إغاثة اللهفان» (1 / 138).

(4) يعني: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني المتوفى (728هـ).

نوح عليه السلام يفتش؛ هل فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو أحد من أصحابه شيئاً من ذٰلك؛ لما ظفر به؛ إلا أن يجاهر بالكذب البحت، فلو كان في هٰذا خير لسبقونا إليه، ولدلونا عليه، فإن كان هٰذا هدى؛ فقد ضلوا عنه! وإن كان الذي كانوا عليه هو الهدى والحق؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! اهـ.

وعن عثمان بن أبي العاص؛ قال: قلت: يا رسول الله! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي؛ يَلْبِسُها عليّ؟ فقال رسول الله ﷺ:

«ذاكَ شَيْطَانٌ يُقالُ لَهُ خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ باللهِ مِنْهُ، واتْفُلْ عَلَى يسارِكَ ثلاثاً». قال: ففعلت ذٰلك؛ فأذهبه الله عني[1].

قال ابن القيم[2]: فأهل الوسواس قرة عين خنزب وأصحابه، نعوذ بالله عز وجل منه.

وعن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه؛ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجلُ الذي يُخَيَّلُ إليه أنه يجد الشيء في الصلاة، فقال:

«لا يَنْفَتِلُ ـ أو: لَا يَنْصَرِفُ ـ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتاً أَوْ يَجِدَ رِيحاً»[3].

فصل

ومن شر الشيطان: ما جاء في حديث سَبْرَة بن أبي فاكِه رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَـدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ؛ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ، فقالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٣) وغيره.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١ / ١٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (١ / ٢٣٧ و٢٨٣ و٤ / ٢٩٤ ـ فتح)، ومسلم (٣٦١)، وغيرهما. وأخرجه مسلم (٣٦٢) بنحوه؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبائِكَ وآباءِ أَبيكَ؟ فَعَصاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ، فقالَ: تُهاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وسَماءَكَ؟ وإِنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ[1]، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهادِ، فقالَ: تُجاهِدُ؟ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ والمالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ المالُ، فَعَصاهُ فَجَاهَدَ» الحديث[2].

قال ابن القيم[3]: ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه؛ ثبطه فيه، وعوقه، وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه؛ قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته[4].

ويكفي من شره؛ أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة، وبالغ في الحيلة، حتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يكفه ذلك، حتى استقطع من أولاده شرطة للنار، من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين[5]، ثم لم يكفه ذلك، حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله

---

(١) وهو الحبل الذي يشد أحد طرفيه في وتد، والطرف الآخر في يد الفرس، وهذا من كلام الشيطان، ومقصوده: أن المهاجر يصير كالمقيد في بلاد الغربة، لا يدور إلا في بيته، ولا يخالطه إلا بعض معارفه، فهو كالفرس في طِوَلٍ، لا يدور ولا يرعى إلا بقدره، بخلاف أهل البلاد في بلادهم؛ فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم، فأحدهم كالفرس المرسل. «سندي».

(٢) أخرجه النسائي في «سننه» (٦ / ٢١) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» برقم (١٦٤٨).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٥٩).

(٤) وذلك بما يوسوسه للعبد من العجب بالعمل، وتسميع الناس به، ونحو ذلك.

(٥) يشير إلى حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «يقولُ اللهُ =

من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله، وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض اهـ.

فصل

وبالجملة؛ فإنه لا يمكن - كما قال ابن القيم[1] - حصر أجناس شره، فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر.

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم؛ برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك؛ صيره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يأس منه من ذلك، وكان ممن سبق

تعالى: يا آدمُ! فيَقولُ: لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخيْرُ في يَدَيْكَ. فيَقولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قالَ: وَما بَعْثُ النَّارِ؟ قالَ: مِن كُلِّ ألفٍ تسعَ مئةٍ وَتسعةً وَتسعينَ. فَعِنْدَهُ يَشيبُ الصَّغيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وَتَرى النَّاسَ سُكَارى، وَمَا هُمْ بِسُكَارى، وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ». قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلاً، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثم قال: «وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فكَبَّرْنا. فقال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فكَبَّرْنا. فقال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فكَبَّرْنا. فقال: «مَا أَنْتُمْ في النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْداءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ بَيْضاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

أخرجه البخاري (٦ / ٣٨٢ و٨ / ٤٤١ و١١ / ٣٨٨ و١٣ / ٤٥٣ - فتح)، ومسلم (٢٢٢)، وغيرهما. وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة نحوه.

والحديث أخرجه أيضاً الترمذي (٣١٦٨ و٣١٦٩)، وأحمد (٤ / ٤٣٢ و٤٣٥)؛ عن عمران ابن حصين رضي الله عنه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٦٠ - ٢٦٢).

له الإسلام في بطن أمه؛ نقله إلى :

المرتبة الثانية من الشر: وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين؛ وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها؛ بقي أيضاً نائبه، وداعياً من دعاته، فإن أعجزه من هٰذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة، ومعاداة أهل البدع والضلال؛ نقله إلى :

المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريص على ذٰلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فـ ﴿**إِنَّ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ في الَّذينَ آمَنُوا لَهُمْ عذابٌ أَلِيمٌ**﴾(١)، هٰذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها، لا نصيحة منهم، ولٰكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذٰلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هٰذا لو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هٰؤلاء؛ فإنها ظلم منه لنفسه، إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته، وبدل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولٰئك فظلم للمؤمنين، وتتبع لعورتهم، وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائن الصدور، ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هٰذه المرتبة؛ نقله إلى :

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر؛ التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها؛ كما قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ ومُحَقَّراتِ الذُّنوبِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ مَثَلُ

---

(١) النور: ١٩.

قَوْمٍ نَزَلُوا بِفَلاةٍ مِنَ الأرْض »[1]، وذكر حديثاً؛ معناه: أن كل واحد منهم جاء بعود حطب، حتى أوقدوا ناراً عظيمة، فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبدُ من هٰذه المرتبة؛ نقله إلى:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات؛ التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هٰذه المرتبة، وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها من النعيم والعذاب؛ نقله إلى:

المرتبة السادسة: وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه؛ ليزيح عنه الفضيلة، ويُفَوِّته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له؛ إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلَّ من يتنبه لهٰذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً، ومحركاً إلى نوع من الطاعة؛ لا يشك أنه طاعة وقربة؛ فإنه لا يكاد يقول إن هٰذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هٰذا خير، فيقول: هٰذا الداعي من الله، وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير؛ إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليُفَوِّت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل، وهٰذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه: تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمّها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين؛ خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هٰذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ، ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن

---

(١) تقدم تخريجه في «الباب الأول».

ذٰلك، فلا يخطر بقلوبهم، واللهُ يمنّ بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هٰذه المراتب الست وأعيى عليه؛ سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقَصَدَ إخمالَه واطفاءَه؛ ليشوش عليه قلبه، ويُشغِل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، لا يفتر ولا يني، فحينئذٍ يَلْبَس المؤمن لامةَ الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسر أو أُصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله اهـ.

فصل

في أن الشيطان ملازم لابن آدم وأنه يجري منه مجرى الدم

اعلم أن الشيطان قرين الإنسان، لا يتركه ما دامت روحه في جسده؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإِيَّايَ؛ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[1].

قال النووي[2]: وفي هٰذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين، ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا؛ لنحترز منه بحسب الإمكان اهـ.

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخطر بين المرء ونفسه، ويوسوس في صدره؛ كما قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤) وغيره، وأخرجه أيضاً بنحوه (٢٨١٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧ / ١٥٨).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[1].

وعن صفية بنت حُيَيٍّ؛ قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني - وكان سكنُها في دار أسامة ابن زيد -، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ:

«عَلى رِسْلِكُما، إنَّها صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ». فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إِنَّ الشَّيْطانَ يَجْري مِنَ الإِنْسانِ مَجْرَى الدَّمِ، وإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءاً - أو قال: شَيْئاً -»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا نُودِيَ للصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ ولَهُ ضُراطٌ؛ حَتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فإذَا قُضِيَ النِّداءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بالصَّلاةِ[3] أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ؛ يَقُولُ: اذْكُرْ كذا، واذْكُرْ كذا - لما لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ -، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»[4].

قال ابن القيم[5]: وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وُكِّل بالعبد؛ فلا يفارقه إلى الممات اهـ.

---

(١) الناس: ١ - ٦.

(٢) أخرجه البخاري (٤ / ٢٧٨)، وفي مواضع أخر، ومسلم (٢١٧٥)، وغيرهما.

(٣) أي: أقيمت.

(٤) أخرجه البخاري (٢ / ٨٤ و٣ / ٨٩ و١٠٣ و٦ / ٣٣٧ - فتح)، ومسلم (٣٨٩) في باب فضل الأذان»، و«باب السهو»، وأخرجه غيرهما.

(٥) «البدائع» (٢ / ٢٥٦).

فصل

في أنه ليس له سبيل إلا على أوليائه

وليس للشيطان سبيل على المؤمنين الموحدين، فمن آمن بالله تعالى حقاً، واعتصم به صدقاً، وتوكل عليه ثقةً به وبكفايته ونصره، فأنَّى للشيطان أن يصل إليه؟! أو يكون له عليه سبيل؛ وقد اعتصم بالله القوي المتين؟!

وبقدر قوة الإيمان والاعتصام بالرحمٰن؛ يغلب العبد الشيطان، ويدفع وسوسته، ويتخلص من شره، أما المُوالي له بطاعته؛ فإنه قد فتح له الطريق للوصول إليه، وللتمكن منه، ولِيَفْعل به أنواع المَثُلات، فبقدر طاعة العبد للشيطان يسيطر عليه، حتى يصبح وليه وصاحبه، بله شيطان مثله، والعياذ بالله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[1].

فسلطانه عليهم: هو إضلاله إياهم وتزيينه لهم، وهم الذين مكنوه من ذٰلك بطاعتهم له، وموالاتهم، وهٰذه الطاعة والموالاة هي الإشراك به المقصود من قوله تعالى: ﴿والَّذينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، فالضمير في «به» يعود على الشيطان، وهو أقرب مذكور[2].

* * * * *

---

(١) النحل: ٩٩ و١٠٠.

(٢) وانظر: «أضواء البيان» (٣ / ٣٥٨ و٣٥٩)، و«فتح القدير» (٣ / ١٩٤).

فصل

فيما يتخلص به العبد من شر الشيطان

يعتصم العبد من الشيطان، ويستدفع شره، ويحترز منه بأمور:

أهمها: الاستعاذة بالله تعالى منه، وذٰلك لقوله تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

قال السعدي[3]: ﴿وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾؛ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان؛ أي: وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به؛ ﴿فاسْتَعِذْ باللهِ﴾؛ أي: اسأله مفتقراً إليه؛ أن يعيذك ويعصمك منه اهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[4].

---

(١) فصلت: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٢٠٠.

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٣٩٩).

(٤) المؤمنون: ٩٧ و٩٨.

قال الشوكاني[1]: (الهمزات): جمع همزة، وهي في اللغة الدفعة باليد أو غيرها، و﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾: نزغاتهم ووساوسهم؛ كما قاله المفسرون، يقال: همزه ولمزه ونخسه؛ أي: دفعه، وقيل: الهمز كلام من وراء القفا، واللمز: المواجهة، وفيه إرشاد لهٰذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان. ومن همزات الشياطين: سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه.

﴿وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾؛ أمره سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين، بعدما أمره أن يتعوذ من همزاتهم؛ والمعنى: وأعوذ بك أن يكونوا معي في حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة والإغراء على الشر، والصرف عن الخير اهـ.

وقال السعدي[2]: أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسِّهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهٰذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هٰذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سلم من كل شر، ووفق لكل خير اهـ.

وقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن؛ فقال سبحانه:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[3].

وكان النبي ﷺ يقول في صلاته قبل القراءة: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ

---

(١) «فتح القدير» (٣ / ٤٩٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٣ / ٣٧٤).

(٣) النحل: ٩٨.

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَهَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»(١).

وكان ﷺ أحياناً يقول: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»(٢).

والاستعاذة معناها: طلب العَوْذ من الله تعالى؛ فهي احتماء واعتصام به سبحانه، والتجاء إليه، فمعنى «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ»؛ أي: ألجأ إلى الله القوي القدير النصير. . .، وأعتصم وأستجير وأحتمي به من أن يضرني الشيطان في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أُمِرْتُ به، أو يحثني على فعل ما نُهيت عنه، أو يُؤذِيني في نفسي وأهلي ومالي.

فصل

وهٰذا الشيطان طبيعته الشر؛ فلا يُقدر عليه إلا بعون الله تعالى، ولا يدفع شره إلا بالاعتصام بالله، والاستعاذة به عز وجل، فينبغي للمستعيذ من شره أن يَعِيَ ما يقول، ويستحضر معناه، ويقبل على الله تعالى في تعوذه، ويلجأ إليه، ويستشعر ضعفه، وتسلط الشيطان عليه، وأنه إن لم يحفظه الله تعالى منه؛ فإنه لا يملك دفع شره، وسيقع في شَرَكه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٠٨)، والحاكم (١ / ٢٠٧)، والبيهقي (٢ / ٣٦)، وأحمد (١ / ٤٠٤)، وغيرهم؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وقال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١ / ١٣٦): صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والنسائي (٢ / ١٣٢)، والترمذي (٢٤٢)، والدارمي (١ / ٢٨٢)، وابن ماجه (٨٠٤)، وغيرهم؛ عن أبي سعيد الخدري، وهٰذه الاستعاذة جزء من الحديث؛ ولٰكن ليست عند النسائي وابن ماجه.

ومعنى (همزه): المُوتَة، وهو نوع من الجنون. و(نفخه): الكِبر، و(نفثه): الشعر.

قال الألباني في «صفة الصلاة»: والتفسيرات الثلاثة وردت مرفوعة إلى النبي ﷺ بسند صحيح مرسل. والمراد بالشعر: الشعر المذموم اهـ.

قراءة المعوذات

ومن الأمور التي يدفع بها شر الشيطان: قراءة المعوذتين؛ «الفلق» و«الناس»؛ فإن لهما ـ كما قال ابن القيم رحمه الله[1] ـ تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره، ودفعه، والتحصن منه.

ويؤيده ما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ قال: كنت أقود برسول الله ﷺ ناقته في السفر، فقال لي:

«يا عُقْبَةُ! ألا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتا؟» فعلمني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. قال: فلم يرني سررت بهما جداً، فلما نزل لصلاة الصبح صلى بهما صلاة الصبح للناس، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة؛ التفت إلي، فقال: «يا عُقْبَةُ! كَيْفَ رَأَيْتَ؟»[2].

ويستعاذ من شر الشيطان بقراءة سورة الإخلاص ـ وهي مع «الفلق» و«الناس» المعوِّذات ـ؛ كما روى عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«اقرَؤوا المُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

(١) «البدائع» (٢ / ٢٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٢)، والنسائي (٨ / ٢٥٣)، وغيرهما. وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٢ / ٢٩٨): حسن.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذي (٢٩٠٣)، والنسائي (٣ / ٦٨)، وابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ٧٥٥)، وابن حبان (٣ / ٢٢٧ ـ إحسان)، وأحمد (٤ / ١٥٥ و٢٠١)، وصححه الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (ص ٦٩).

الفَلَقِ﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذٰلك ثلاث مرات[1].

وعن عبد الله بن خبيب؛ قال: خرجنا في ليلةِ مَطَرٍ وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: «أَصَلَّيْتُمْ؟» فلم أقل شيئاً، فقال: «قُلْ»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قُلْ»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قُلْ»، فقلت: يا رسول الله! ما أقول؟ قال:

«﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ والمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلاثَ مَرّاتٍ؛ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[2].

قلت: وينبغي لمن تعوذ بهٰذه السور؛ أن يفهم معناها، ويقبل في تعوذه بها على ربه عز وجل، لا أن يقولها بلسانه مجرداً؛ دون حضور القلب، وتدبر المعنى، فمن قرأ: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ**﴾ مثلاً، وهو لا يدري معنى «أعوذ» ولا معنى اسم «الرب» تبارك، ولا معنى «الفلق»، أو يعلم معنى ذٰلك؛ لٰكن لم يستحضره ولم يتدبره، فإن هٰذا وإن كان فيه أصل النفع؛ إلا أنه لا يجدي ولا يترتب عليه الموعود.

قراءة
آية الكرسي

ويحترز من شر الشيطان بقراءة آية الكرسي؛ كما أخبر أُبي بن كعب؛ أنه كان لهم جرين[3] فيه تمر، فكان مما يتعاهده، فوجده ينقص، فحرسه ذات

---

(١) أخرجه البخاري (٩ / ٦٢ و١٠ / ٢٠٩ و١١ / ١٢٥ - فتح) وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢) واللفظ له، والترمذي (٣٥٧٥)، وقال: حسن صحيح، ووافقه الألباني في «تخريج الكلم» (ص ٣١)، وأخرجه النسائي (٨ / ٢٥٠).

(٣) أي: جرن، وهو الموضع الذي يُداس فيه الطعام، وتجفف فيه الثمار، والجمع أجران.

ليلة، فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم، قال: فسلم، فرد السلام، فقلت: ما أنت، جن أم إنس؟ قال: جن. فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب، وشعر كلب، فقلت: هٰذا خلق الجن؟ فقال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني. فقلت: ما يحملك على ما صنعت؟ فقال: بلغني أنك تحب الصدقة، فأحببت أن أُصيب من طعامك. فقلت: ما الذي يحرزنا منكم؟ فقال: هٰذه الآية؛ آية الكرسي. قال: فتركته، وغدا أُبي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: «صَدَقَ الخَبِيثُ»(١).

وروى النسائي(٢)؛ قال: أخبرنا إبراهيم بن يعقوب؛ قال: حدثنا عثمان ابن الهيثم؛ قال: حدثنا عوف، عن محمد، عن أبي هريرة؛ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، وبي حاجة شديدة. فخليت عنه، فلما أصبحت قال النبي ﷺ: «يا أَبا هُرَيْرَةَ! ما فَعَلَ أَسِيرُكَ البارِحَةَ؟» قلت: يا رسول الله! شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله. فقال: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ». فعرفت أنه سيعود؛ لقول

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٩٦٠ و٩٦١ و٩٦٢)، وابن حبان (١٧٢٤ ـ موارد)، والحاكم (١ / ٥٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه غيرهم. وقال المنذري في «الترغيب» (١ / ٤٥٨): رواه النسائي والطبراني بإسناد جيد. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (رقم ٦٥٨).

(٢) في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٩٥٩)، ورواه غيره. وعلّقه البخاري في «صحيحه» (٤ / ٤٨٧ و٦ / ٣٣٥ و٩ / ٥٥ ـ فتح)؛ قال: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو: حدثنا عوف عن محمد ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الحافظ في «الفتح» (٤ / ٤٨٨): وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم من طرق إلى عثمان المذكور.

رسـول الله ﷺ: «إِنَّـهُ سَيَعُـودُ». فرصـدته، فجاء يحثو من الطعام، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، ولا أعود. فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال رسول الله ﷺ: «يا أَبا هُرَيْرَةَ! ما فَعَلَ أَسِيرُكَ البارِحَةَ؟». قلت: يا رسول الله! شكا حاجة وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله. فقـال: «أَما إِنَّـهُ كَذَبَـكَ، وَسَيَعُودُ»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، هٰذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ثم تعود، قال: قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي[1]؛ ﴿**اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّـومُ**﴾ حتى تختم الآية، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربـك شيطان حتى تصبح، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فَعَلَ أَسِيرُكَ البارِحَةَ؟». قلت: يا رسول الله! زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله. قال: «ما هِيَ؟». قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، من أولها حتى تختمها؛ ﴿**اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ**﴾، وقال: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك الشيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحـرص شيء على الخيرـ، فقال النبي ﷺ: «أَما إِنَّهُ كَذُوبٌ، وَقَدْ صَدَقَكَ، تَعْلَمُ مَنْ تُخاطِبُ مُنْذُ ثلاثٍ يا أَبا هُرَيْرَةَ؟». فقلت: لا. قال: «ذٰلِكَ الشَّيْطانُ».

قراءة
سورة البقرة

ومما يحترز به من شر الشيطان: قراءة سورة البقرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

«لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقابِرَ، إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»(١).

قراءة
الآيتين من آخر سورة البقرة

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتاهُ»(٢).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتاباً قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ والأَرْضَ بِأَلْفَيْ عامٍ، فَأَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ البَقَرَةِ، ولا تُقْرَآنِ في دارٍ ثَلاثَ لَيالٍ فَيَقْرَبُها الشَّيْطانُ»(٣).

قول
«لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»

ومن أسباب دفع شر الشيطان: قول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» في اليوم مئة مرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ قالَ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كانَتْ لَهُ عَدْلَ عشْرِ رِقابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٠) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٩ / ٥٥ ـ فتح)، ومسلم (٨٠٧ و٨٠٨)، وغيرهما.

(٣) أخرجه الدارمي (٢ / ٤٤٩)، والترمذي (٢٨٨٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٦٦ و٩٦٧)، والحاكم (٢ / ٢٦٠)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه غيرهم. وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٢ / ١٢٣): صحيح.

مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطانِ يَوْمَهُ ذٰلِك حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ»(١).

الإكثار من ذكر الله عز وجل

ومن أعظم ما يحترز به العبد من شر الشيطان: كثرة ذكر الله تعالى، بل إن أكثر تسلط الشياطين على العبد بسبب غفلته عن ذكر الله تعالى، وأعني بالذكر: تلاوة القرآن الكريم، وما ثبت عن سيد المرسلين ﷺ من الأذكار المطلقة والمقيدة، لا الذكر المبتدع والمخترع.

والأذكار الثابتة عن النبي ﷺ كثيرة جداً، فمن الغباء الإعراض عنها، والاشتغال بما سوّده المبتدعون من الأذكار والأوراد.

وجاء في الحديث؛ أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يحيى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ؛ أَنْ يَعْمَلَ بها، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا» الحديث. وفيه: «وآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ في أَثَرِهِ سِراعاً، حَتَّى أَتَى على حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذٰلِكَ العَبْدُ لا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»(٢).

قال ابن القيم(٣): وهٰذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٣٣٨ و١١ / ٢٠١ ـ فتح)، ومسلم (٢٦٩١)، وغيرهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ و٢٨٦٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٨٣)، وابن حبان (٨ / ٤٣ ـ إحسان)، والحاكم (١ / ١١٨)، وصححه. وأخرجه ـ أيضاً ـ الطيالسي (١١٦١)، وصحح إسناده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ٣٦٩٤).

(٣) «البدائع» (٢ / ٢٧٠).

النَّاسِ﴾، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس: الذي إذا ذَكَرَ العبدُ اللهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب، وألقى إليه الوساوس؛ التي هي مبادىء الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل اهـ.

أعظم
ما يحرز من الشيطان

وأعظم ما يحترز به العبد من شر الشيطان: الإيمان بالله تعالى، والتوكل عليه وحده؛ كما قال سبحانه عن إبليس:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١).

وتقدم الكلام على هٰذه الآية.

ويدخل في الإيمان بالله تعالى توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ويدخل فيه ـ أيضاً ـ الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى.

وأما التوكل على الله: فهو الاعتماد عليه عز وجل في دفع شر الشيطان، ويدخل في التوكل الاعتماد على الله تعالى في جلب ما ينفع في الدين والدنيا، ودفع ما يضر فيهما، والأخذ بأسباب ذٰلك، والوثوق به سبحانه في تسهيل ذٰلك على العبد، فإذا توكل العبد على مولاه؛ كفاه الأمر الذي توكل عليه فيه؛ كما قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٢).

---

(١) النحل: ٩٩.

(٢) الطلاق: ٣.

أي: كافي من يثق به في نوائبه ومهماته، يكفيه كل ما أهمه، و«الحسْب»: الكافي، «حسبنا الله»: كافينا الله ـ أفاده ابن القيم(١) ـ.

وقال رحمه الله(٢): قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده؛ فقال: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾، ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر؛ كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافٍ عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره اهـ.

وقال ابن رجب(٣): الإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلام الطيب؛ كما قال النبي ﷺ: «**أَلا وإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلا وَهِيَ القَلْبُ**»(٤). ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله، وما يدخل في مسماه؛ من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبته ورجائه وإجابته والإنابة إليه والتوكل عليه.

وقال: قال الحسن: ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولٰكنه بما وقر في الصدور، وصدقته الأعمال.

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٤٧١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٤٠).

(٣) «لطائف المعارف» (ص ٢٤٠).

(٤) بعض حديث أخرجه البخاري (١ / ١٢٦ و٤ / ٢٩٠ ـ فتح)، ومسلم (١٥٩٩)، وغيرهما؛ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّما المُؤمِنُونَ الَّذينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وعلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلونَ . الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولٰئِكَ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقّاً﴾[1].

وفي هٰذا يقول بعضهم:

ما كُلُّ مَنْ زَوَّقَ لِي قَوْلَهُ   يَغُرُّني يا صاحِ تَزْويقُهُ
مَنْ حَقَّقَ الإِيمانَ فِي قَلْبِهِ   لا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ تَحْقِيقُهُ اهـ

ترك الفضول من كل شيء

ومن أسباب السلامة من شر الشيطان ـ كما قال ابن القيم[2] ـ: «إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه؛ من هٰذه الأبواب الأربعة.

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر، وهو أصل البلاء، والحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؟! كما قال الشاعر:

كُلُّ الحوادِثِ مَبْداها مِنَ النَّظَرِ   ومُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ في قَلْبِ صاحِبِها   فَتْكَ السِّهامِ بِلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ

قال ابن القيم:

يا رامِياً بِسِهامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِداً   أَنْتَ القَتِيلُ بِما تَرْمِي فَلا تُصِبِ

---

(١) الأنفال: ٢ و٣.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٧١ ـ ٢٧٣) مقتطفاً.

وبـاعِثَ الـطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفاءَ لَهُ ... تَوَقَّـهُ إِنَّـهُ يَرْتَـدُّ بِالـعَـطَبِ
تَرْجُـو الشِّفَـاءَ بِأَحْدَاقٍ بِها مَرَضٌ ... فَهَـلْ سَمِعْتَ بِبُـرْءٍ جَاءَ مِنْ عَطَبِ
وواهِبـاً عُمْـرَهُ فِي مِثْلِ ذا سَفَهاً ... لَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَ العُمْرِ لَمْ تَهَبِ
وَبـائِعـاً طِيبَ عَيْشٍ ما لَهُ خَطَرٌ ... بِطَيْفِ عَيْشٍ مِنَ الآلامِ مُنْتَـهَبِ
غُبِنْتَ وَاللهِ غَبْنـاً فاحِشـاً فَلَوِ اسْـ ... ـتَرْجَعْتَ ذا العَقْدِ لَمْ تُغْبَنْ وَلَمْ تَخِبِ

[فصل]

وأما فضول الكلام؛ فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر، كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة؟ وقد قال النبي ﷺ لمعاذ:

«وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ على مَنَاخِرِهِمْ في النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١).

وأكثر المعاصي إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان؛ فلو تركا، لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر؛ كما يحذرون من فضول الكلام؛ كانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

[فصل]

وأما فضول الطعام؛ فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شراً، فكم من معصية

---

(١) بعض حديث أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥ / ٢٣١)، وغيرهم؛ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. وصححه الألباني في «الإرواء» (رقم ٤١٣).

جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها.

فمن وقي شر بطنه؛ فقد وقي شراً عظيماً، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

وقال النبي ﷺ: «ما مَلأَ آدَمِيٌّ وِعاءً شَرّاً مِن بَطْنٍ»[1].

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل؛ لكفى به شراً، فإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة؛ جثم عليه الشيطان، ووعده ومنّاه وشهّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت[2] سكنت وخشعت وذلت.

وأما فضول المخالطة؛ فهي الداء العضال الجالب لكل شر[3].

حفظ الخطرات

ويحترز العبد من شر الشيطان بحفظ أفكاره وخطراته، وإمساكها عن الجولان في الشهوات المحرمة، والأماني الكاذبة، والأفكار الفاسدة، فإن إطلاقها مدخل من مداخل الشيطان، بل هو أصل الشر كله.

وتكلم ابن القيم رحمه الله تعالى عن الخطرات فقال[4]: إنها مبدأ الخير

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وغيره. وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «الإرواء» تحت الحديث (رقم ١٩٨٣).

(٢) ليس كل جوع؛ إنما هو الجوع الشرعي: بترك إعطاء البطن أكثر من الثلث، أو بالاكتفاء بما يقيم الصُّلب، أو بالصيام؛ وأما الجوع بسبب فقدان الطعام؛ فهٰذا جوع ليس للعبد فيه اختيار، ولٰكن يحتاج فيه إلى الصبر والاستعانة بالغني الحكيم سبحانه وتعالى.

(٣) سيأتي تمام الكلام على المخالطة وآفاتها عند ذكر «العائق الرابع»؛ إن شاء الله.

(٤) انظر: «الجواب الكافي» (ص ١٨١).

والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته، فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات، قادته قهراً إلى الهلكات.

وأخس الناس همة، وأوضعهم نفساً؛ من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم.

والمتمنِّي لمَّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه؛ حَوَّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره، وذٰلك لا يجدي عليه شيئاً، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن؛ يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب.

وقال في «فوائده»[1]: دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضدِّه[2] صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها.

*****

---

(١) (ص ٤٦).

(٢) من توبة واستغفار وحسنات ماحية، ونحو ذٰلك.

العائق الثاني: النفس

وهي مركب الشيطان، وعن طريقها يصل إلى مراده من العبد؛ فإنها إذا مالت إلى الشهوات المحرمات، وأمرت العبد بها، فتحت للشيطان الطريق للوصول إلى العبد، فيتسلط عليه بالوساوس، ويفسد عليه قلبه، ويعده ويمنيه، ويوقعه في المحرمات، وأما إذا اطمأنت النفس إلى خالقها سبحانه وتعالى، فأطاعت أوامره؛ فإن الشيطان لا يجد إلى العبد سبيلاً، وذلك لضعف قوته أمام قوة النفس المطيعة لأمر الله تعالى، المطمئنة إليه؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(١).

وأصل الشر كله ـ كما ذكرنا ـ من الشيطان، ومع ضعف كيده أمام النفس المطيعة لله تعالى؛ إلا أنه يقوى إذا ما واجه النفس الأمارة بالسوء، ويتمكن من الوصول إلى العبد، إذ لا سبيل له إليه إلا عن طريقها، فعاد الشر كله إليهما (أعني: الشيطان والنفس).

النفس الأمّارة

وجاء في القرآن الكريم وصف النفس بأنها أمَّارة بالسوء في قول الله تعالى على لسان امرأة العزيز:

---

(١) النساء: ٧٦.

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾[1].

قال السعدي[2]: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾؛ فنجاه من نفسه الأمّارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذٰلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده اهـ.

النفس اللوّامة

ووصف الله تعالى النفس بأنها لوّامة؛ فقال سبحانه:

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[3].

قال الشوكاني[4]: ومعنى «النفس اللوّامة»: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي واللهِ! نفس المؤمن، لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه؛ ما أردت بكذا؟ وما أردت بكذا؟ والفاجر لا يعاتب نفسه اهـ.

النفس المطمئنة

ووصف الله تعالى النفس - أيضاً - بالطمأنينة، وهي أكمل أوصافها؛ فقال سبحانه:

---

(١) يوسف: ٥٣.

(٢) «التيسير» (٢ / ٤٢٢).

(٣) القيامة: ١ و٢.

(٤) «فتح القدير» (٥ / ٣٣٥).

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾(١).

قال ابن القيم(٢): وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضى به ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلٰهها ومعبودها ومليكها، ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين اهـ.

تغير
أحوال النفس

والنفس تتغير من حالة إلى أخرى؛ فتارة تكون أمّارة بالسوء، وتارة لوّامة، وأخرى مطمئنة.

فبطاعتها لله تعالى تنتقل من أمارة إلى لوامة، ثم إلى مطمئنة، وينعكس الأمر بالمعصية.

وغاية كمال العبد أن يكون ذا نفس مطمئنة، وهٰذا لا يمكن تحصيله إلا برحمة الله تعالى وتوفيقه، نسأله سبحانه من فضله، إنه هو الجواد الكريم، والعليم الحكيم.

قال ابن القيم(٣): والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة،

---

(١) الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١ / ٧٦).

(٣) «إغاثة اللهفان» (١ / ٧٨).

بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هٰذا وهٰذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمّارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوّامة ينقسم إلى المدح والذم؛ بحسب ما تلوم عليه اهـ.

قلت: وَصْفُ القرآن النفس بأنها لوّامة صفة مدح، ولذا أقسم الله تعالى بها، فلوم النفس صاحبها على فعل الشر ممدوح، وهو المقصود من القسم بالنفس اللوّامة، ولٰكن أمر النفس العبد بالشر مذموم، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على ذٰلك، وعلى حال كونها أمّارة، فلا تكون لوّامة إلا وهناك معصية، فلذا كانت دون المطمئنة الموصوفة بما بيّنا.

وقد يكون القسم بجنس النفس، وهو ممكن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وما سَوَّاها . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاها﴾[1]، وعندها يتوجه كلام ابن القيم بكون اللوّامة صفة مدح أو ذم بحسب ما تلوم عليه، ويكون القسم بجنس النفس اللوّامة، سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وذٰلك لعجيب خَلْقها وخُلُقِها، وما فيها من أسرار، والله أعلم.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميّالة إلى الشر؛ فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذٰلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة؛ كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك اهـ.

---

(١) الشمس: ٧ و٨.

فصل

في طرق التخلص من شر النفس

وإذ قد عُلِمَ شر النفس، وكثرة أمرها صاحبها بالشر، وأنها شريك الشيطان في سحبه إلى النار، وعُلم أن في طمأنينتها الخير كله؛ صار لزاماً على العاقل أن يتخلص من شرها، ويحملها على ما فيه صلاحها، وذٰلك بأمور:

منها: أن يكبح جماحها، ويجاهدها على فعل الخير، ملزماً إياها تقوى الله عز وجل؛ التي بها تكون زكاتها، فتفوز وتفلح فلاح الأبد، وتربح خير الدنيا والآخرة، وقد أقسم الحق سبحانه على هٰذا أحد عشر قسماً؛ فقال تعالى:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا* وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا* وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا* وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا* وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

قال ابن القيم[2]: والمعنى: قد أفلح من كَبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغّرها بمعصية الله، وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[3]، فالعاصي يدس نفسه في

---

(١) الشمس: ١ ـ ١٠.

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٩٠ ـ ٩١).

(٣) النحل: ٥٩.

المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذٰلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهٰذا الذل حصل لها هٰذا العز والشرف والنمو، فما صَغَّر النفوس مثل معصية الله، وما كبّرها وشرّفها ورفعها مثل طاعة الله اهـ.

وقال السعدي[1]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾؛ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقّاها بطاعة الله، وعلّاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها﴾؛ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها؛ بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب والذنوب، وترك ما يكملها ويُنَمِّيها، واستعمال ما يشينها ويدسيها اهـ.

وفي «إغاثة اللهفان»[2]: قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه؛ أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه؛ خسر وهلك اهـ.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ على أَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ، والمُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ النَّـاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُجَاهِدُ: مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ اللهِ، والمُهَاجِرُ: مَنْ هَجَرَ الخَطايا والذُّنوبَ»[3].

(١) «التيسير» (٥ / ٤٢٢).

(٢) (١ / ٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٧ / ١٠٣ و١٧٨ - إحسان)، والحاكم (١ / ١٠ - ١١)، وأحمد (٦ / ٢١ و٢٢)، وغيرهم. قال الحاكم: على شرط =

مراتب جهاد النفس

وجهاد النفس أربع مراتب ـ كما قال ابن القيم[1] ـ:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق؛ الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه؛ شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل؛ إن لم يضرها؛ لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذٰلك كله لله، فإذا استكمل هٰذه المراتب الأربع؛ صار من الربّانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالِم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به ويُعَلِّمَه.

ولبعضهم[2]:

فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ ما اتَّعَظَتْ ... مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ
ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرى ... ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ

= مسلم، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٨٢).

وأخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو يرفعه: «المُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ: مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عَنْهُ». وقد تقدم في «الباب الأول».

(١) «زاد المعاد» (٣ / ١٠).

(٢) هو البوصيري صاحب «البردة» الشهيرة، وقد انتقيت منها هٰذه الأبيات؛ رغم ما فيها من الشركيات والبدع والمخالفات، فليحذر.

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي ما أُوَقِّرُهُ ... كَتَمْتُ سِرّاً بَدا لي مِنْهُ بالكَتَمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِماحٍ مِنْ غَوَايَتِها ... كَما يُرَدُّ جِمَاحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ
فَلا تَرُمْ بالمَعاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا ... إنَّ الطَّعامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ
والنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلى ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَواها وَحاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ(١)
وراعِهَا وهْيَ في الأعْمَالِ سائِمَةٌ ... وإنْ هِي اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلا تُسِمِ
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً ... مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلأَتْ ... مِنَ المَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
وخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِما ... وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ
ولا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً ولا حَكَماً ... فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

وقال ابن الجوزي(٢): أعجب الأشياء مجاهدة النفس؛ لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة، فإن أقواماً أطلقوها فيما تحب، فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن أقواماً بالغوا في خلافها، حتى منعوها حقها وظلموها، وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم، فمنهم من أساء غذاءها، فأثمر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها، ومنهم من أفردها في خلوة، أثمرت الوحشة من الناس، وآلت إلى ترك فرض أو فضل؛ من عيادة مريض، أو بر والدة.

وإنما الحازم من تَعَلم منه نفسُه الجِد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعدّاه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده، فإنه لا

---

(١) (يصم) الأولى: بضم الياء وسكون الصاد، من الصمم، وهو فقد السمع، و(يصم) الثانية: بفتح الياء وكسر الصاد، من الوصم، وهو العار.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٤١).

ينبسط إليه الغلام، فإن انبسط ذكر هيبة المملكة، فكذلك المحقق، يعطيها حظها، ويستوفي منها ما عليها اهـ.

فصل

ومن طرق الخلاص من شر النفس المعيقة للمؤمن عن الفرار إلى الله تعالى: تحذيرها مولاها، وتخويفها منه تعالى جده، فإنه لا شيء أقمع لشهوات النفس من الخوف من عقاب الله جل وعلا، فمن خاف من الله تعالى خوفاً صادقاً؛ سكنت نفسه، وخشعت وذلت وانكسرت، وجانبت ما هي فيه من المعاصي، وبادرت بالأعمال الصالحة الأوقات، واغتنمت من أجل ذلك الساعات، بل وضنت بالأنفاس واللحظات.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»(١).

وقال أبو الحسين الورّاق(٢): الشهوة أغلب سلطان على النفس، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء: العجب لمن عرف الله وجلاله، كيف يخالف أمره، وينتهك حريمه؟! فقال الحكيم: بإغفال الحذر، وبسط الأمل، وبعسى وسوف ولعل. قال الملك: بم يعتصم من الشهوة، وقد ركبت في أبدان ضعيفة، ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن؟ قال الحكيم: إن الشهوة من نتاج الفكر، وقرين كل فكرة عِبرة، ومع كل شهوة زاجر عنها، فمن قرن شهواته بالاعتبار، وحاط نفسه بالازدجار؛

---

(١) تقدم في آخر «الباب الثاني» ومعناه وتخريجه.

(٢) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

انحلت عنه ربقة العدوان، ودحض سيىء فكره بإيثار الصبر على شهوته؛ لما يرجو من ثواب الله على طاعته، ويخاف من عقابه على معصيته.

وفي «المدهش»[1]: ما دامت نفسك عند التوبيخ تنكسر، وعينك وقت العتاب تدمع، ففي قلبك بعد حياة، إنما المعاصي أوجبت سكتة، فأنشِق هواك حرّاق التخويف، وقد عطس، يا من قد أبعدته الذنوب عن ديار الأنس! إبك وَطَرَ الوطن؛ عساك تُرد.

وقد فصلت في كتابي «الخوف» فضائل الخوف من الله عز وجل، وذكرت فيه الأمورِ التي يستجلب بها، فمن أحب فليطلع عليه؛ فإنه ـ والحمد لله ـ نفيس.

ومما قلته فيه: فكم فَكَّ الخوف من الله تعالى من أسير شهوة؛ ملكت عليه نفسه، وأبعدته عن ربه عز وجل.

وكم أطلق من سجين لذات، أطبقت عليه سرادقها.

وكم كسر من قيود مُسْتَعْبَد لهواه، متأله له من دون الله.

وكم أعان على خُلُق كريم؛ من عفة وتقوى وورع.

وكم كفّ عن خُلُق ذميم، كاد صاحبه يظنه مباحاً لعدم انفكاكه عنه؛ كرياء وعُجْب وغرور.

وكم أطفأ الخوف من نار حسد وحقد وغيظ.

وكم سبَّب في بر والدين، وأصلح بين متخاصمين.

وكم منع الخوف من إساءة وتعد وظلم.

---

(١) (ص ٣٥٧).

وكم أيقظ من غافل؛ عاش طول عمره في الشهوات، معرضاً عن الله تعالى والدار الآخرة.

وكم فك الخوف من رقبة عبد درهم ودينار، ومُرْد ونسوان، ومزامير وأوتار.

وكم من تائه في ظلمات الكفر والفجور، غارق في الزنا والخمور، أخرجه الخوف إلى الإيمان والنور.

وكم بالخوف من زانية عفّت، وغانية تنسكت.

وكم حار عقل في تحصيل خشوع وإخبات وسكينة؛ فهداه الخوف وأعانه وأرشده.

وكم من مجاهد جاب ساحات الوغى، وخاض غمار الحروب، واقتحم الأهوال، لا يخشى في الله لومة لائم؛ لامتلاء قلبه من خشية خالقه جلّ وعلا.

وكم منعه الخوف من ترك رباط، وفرارٍ من زحف؛ رغم بوارق السيوف، وحمم القذائف، وأزيز الطائرات، ولهيب المعركة.

وكم من مذنب ما ظن أن يتوب ولو مات نصفه؛ لشدة تعلقه بالشهوات، وحبه لها؛ جاءه الخوف بزواجره، فتاب وأناب.

وكم رعدت بروق الخوف في القلوب القاسية؛ فأمطرت دموع الخشية، وانجلت عنها سحب الغفلة؛ فصفا سماء القلب واستنار، وطلعت عليه شمس النهار.

فصل

ومن طرق الخلاص من شر النفس: تعريفها بعاقبة من ملكته شهوته، وأسره هواه، وبالمقابل عاقبة من تحرر من رق الشهوة، وخرج من سجن الهوى.

وفي ذلك قال المولى عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾(٢).

وفي بيان معنى «الهوى» قال ابن الجوزي(٣): اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهٰذا الميل قد خُلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذٰلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلِب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذٰلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب من مُوافِق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع؛ أُطلق ذم الهوى والشهوات؛ لعموم غلبة الضرر.

وقال: اعلم أن مُطلِق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل.

وأما العاقل؛ فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعقب ألماً، وشهوة تورث ندماً، وكفى بهٰذا القدر مدحاً للعقل، وذماً للهوى.

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى، وإن أدّاه إلى التلف؟ فيُفَضَّل العاقل عليه بمنع نفسه من ذٰلك.

---

(١) مريم: ٥٩ و٦٠.

(٢) النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

(٣) «ذم الهوى» (ص ١٢ ـ ١٥).

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالباً؛ وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل[1]، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة.

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب؛ ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته، وليعلم العاقل أن مُدْمِني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عُشْر التذاذ من لم يدمن، غير أن العادة تقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك، لنيل ما يقتضيه تعوُّده، ولو زال رَيْنُ الهوى عن بصر بصيرته؛ لرأى أنه قد شقي من حيث قدَّر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وأَلِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ، لا هو نال ما خدع به، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه.

فإن قال قائل: فكيف يتخلص من هذا من قد نشب فيه؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في ترك ما لا يؤمن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة، يهونهما سبعة أشياء:

أحدها: التفكر في أن الإنسان لم يخلق للهوى، وإنما هُيِّىء للنظر في العواقب، والعمل للآجل، ويدل على هذا؛ أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان، مع عيش هنيٍّ خالٍ عن فكر وهمّ، ولهذا تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها؛ لفقدان العلم بالعواقب.

والثاني: أن يفكر في عواقب الهوى، فكم قد أفات من فضيلة، وكم قد

---

(١) يعني: الآمر باتباع الشرع.

أوقع في رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاهٍ، وقبح ذكر مع إثم؟! غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، فأقرب الأشياء شبهاً به مَن في المدبغة؛ فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج، فيعلم أين كان.

والثالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة، فإنه يراه يُرْبي على الهوى أضعافاً، وقد أنشد بعض الحكماء:

وأَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرْتَكِبْ سَبَباً ... حَتَّى يُمَيِّزَ ما تَجْنِي عَوَاقِبُهُ

والرابع: أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يتلمح عاقبته بفكره، فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء، وإنما عين الهوى عمياء.

والسادس: أن يتدبر عز الغلبة، وذل القهر، فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة العز، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر.

والسابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى؛ من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعِرض، والأجر في الآخرة، ثم يعكس؛ فيتفكر لو وافق هواه؛ في حصول عَكس ذلك على الأبد.

وقال رحمه الله[1]: يا تائهاً في بوادي الهوى! انزل ساعة بوادي الفكر؛ يخبرك بأن اللذة قصيرة، والعقاب طويل، واعجباً لمن يشتري شهوة ساعة بغم الأبد! كانت المعصية ساعة، لا كانت، فكم ذلت بعدها النفْس، وكم تصاعد

---

(١) «المدهش» (ص ٤٠٥).

لأجلها النَفَس، وكم جرى لتذكارها دمع؟!

فصل

ومن طرق الخلاص من شر النفس: مراقبتها ومحاسبتها، ومخالفتها فيما تريد من معصية الله تعالى، فإن تَرْكَ النفس تسرح في الشهوات، وتمرح في الملذات، وتفعل ما تهوى من المحرمات، وتدع ما تشاء من الطاعات، دون محاسبتها، وإيقافها عند حدِّها، وأمرها ونهيها؛ هو سبب عطبها وهلاكها.

قال ابن القيم؛ ذامّاً المغتر، واصفاً تارك المحاسبة[1]: يغمض عينيه عن العواقب، ويُمَشِّي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه، والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليه فِطامها، ولو حضره رشده؛ لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد اهـ.

فصل

وأما كيفية محاسبة النفس؛ فليس فيها طريقة معينة ولازمة، ولكن يحاسب العبد نفسه على التقصير في أداء الطاعات، وعلى فعل المحرمات، ويراقبها باستمرار، ويزجرها على الدوام، ويجاهدها في الليل والنهار.

فيقول لها: ويحك! لم تركت كذا من الواجبات؟ ولم تركت كذا؟ ويخوفها من عقاب الله تبارك اسمه، ويرغبها في ثوابه، ويلزمها بفعل الطاعة، واستدراك ما فات منها؛ بأدائه إن أمكن شرعاً، أو بإصلاحه، وإلا فبالتوبة النصوح.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١ / ٨٢).

ثم يحاسبها على فعل المعاصي؛ فيوبخها قائلاً: لم فَعَلْتِ كذا، ولم فعلت كذا؟ يا ظالمة! يا جاهلة! يا مرائية! يا قليلة الطاعات! يا كثيرة المعاصي! أما المعاصي؛ فتستريها عن الخلق، وأما الطاعات فمع قلتها؛ فأنت ترائين الناس بها وتُسَمِّعين، وتحسبين أنك مأجورة، لا والله! بل أنت مغرورة، ولن ينفعك إلا ما كان خالصاً لوجه مولاك تبارك وتعالى.

ويقول لها: ألا تتقين الله تعالى؟! ألا تخافين عقابه؟! ألا ترغبين في ثوابه؟! ألا تستحين ممن ينعم عليك ويسترك؟! أما آن لك أن تخافي وترعوي؟! إلى متى وحتى متى؟! ألا تؤمنين بأنه لا بد من الموت، ولقاء الله عز وجل؟! فكيف تلاقينه بهٰذه المعاصي الكثيرة؟! أم لك قدرة على النار، وحر النار؟!

ويقول لها: ألا تخافين أن يفاجئك الموت وأنت مصرة على المعاصي؟! ألا تخافين أن تتراكم عليك الذنوب، ولا توفقي لتوبة مدى العمر؟!

ويحك يا نفس! منذ كذا وكذا وأنت تقولين: غداً أتوب، غداً أتوب، متى يأتي غداً هٰذا؟! أعند انتهاء العمر؟! أم إلى أن تزول نعمة الصحة والعافية؟! أم حتى تنقضي مدة الشباب؟! أو تمرضي مرض الموت؟! وتقعي في حسرة الفوت.

ويقول لها: لا تغتري بالشباب؛ فإن الموت قد يفاجئك، ألم تسمعي بآلاف الشباب يموتون فجأة، ومن غير علة؟! فاتق الله يا نفس! وهيّا إلى رضاه وسعادتِك، هيّا! هيّا!

ويقول لها: لن أطيعك بعد اليوم، وسأتوب إلى مولاي من غدٍ، لا؛ بل أخاف أن لا أدرك غداً، أنا تائب من الآن، ولن أطيعك، وسأمنعك من المحرمات، وألزمك بالطاعات، ولو رفضت، ولو أظهرت العَجْز، ومهما تضايقت، ومهما فعلت؛ فلن أطيعك.

ويقـول لهـا: تفكري في السابقين وأحوالهم، تدبري في ثواب الأبرار وسرورهم، والمقربين وعلو منازلهم، ألا همة للحاق بهم، ومنافستهم، ونيل الدرجات العُلى عند المليك المقتدر؟!

ويقـول لها: اعلمي أنك بعد قليل ستفرحين وتلذذين بالتوبة وترك الذنب؛ أكثـر من فرحك وتلذذك به[1]، واصبري؛ ﴿فَإِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، وهو سبحانه شكور، ولن يَتِرَكِ عملك، وسيعوضك على ما تركت خيراً منه وأطيب في الـدنيا قبل الآخرة، ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾[3]؟! هٰذا في دورهم الثلاث، ألم يقل رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً للهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ ما هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»[4]؟! فهَيّا يا نفس! إلى طاعة الله تعالى وترك معصيته، وهيّا إلى جنة عالية قبل فوات الأوان، وانقضاء الزمان.

يا نَدامـايَ صَحَـا الـقَلْبُ صَحَـا … فاطْـرُدُوا عَنِّي الصِّبـا والمَـرَحـا
زَجَـرَ الـوَعْظُ فُؤادِي فارْعَـوَى[5] … وأَفَـاقَ الـقَـلْبُ مِنِّـي وَصَـحـا
هَزَمَ الـعَـزْمُ جُنُـوداً لِلْهَـوى … فاسِـدي لا تَعْـجَـبُـوا إِنْ صَلُحـا
بادِرُوا الـتَّـوْبَـةَ مِنْ قَبْـلِ الـرَّدَى … فَمُـنـادِيهِ يُـنـادِينـا الـوَحَـا[6]

---

(١) قال ابن القيم في كتاب «الروح» (ص ٣٣٦ ـ ط دار الفكر): فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافاً مضاعفة؛ لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

(٢) البقرة: ١٥٣، والأنفال: ٤٦.

(٣) الانفطار: ١٣، والمطففين: ٢٢.

(٤) أخـرجه أحمد (٥ / ٣٦٣) وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث (رقم ٥).

(٥) (ارعوى): من رَعا رَعْواً ورَعْوى؛ أي: كَفَّ وارتدع.

(٦) (الوحا): البِدار، فيقال للإسراع: الوحا الوحا؛ أي: البِدار البِدار.

فصل

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

قال ابن القيم[1]: فأما **النوع الأول**: فهو أن يقف عند هَمِّه وإرادته، ولا يبادر بالفعل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هٰذا بعضهم؛ فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهَمَّ به العبد، وقف أولاً ونظر: هل ذٰلك العمل مقدور له، أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدوراً؛ لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً؛ وقف وقفة أخرى، ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني؛ تركه، ولم يقدم عليه، وإن كان الأول؛ وقف وقفة ثالثة، ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني؛ لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذٰلك؛ يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول؛ وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو معان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذٰلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان؛ أمسك عنه.

فهٰذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصَّرت فيها من حق الله تعالى؛ فلم توقعها

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١ / ٨١ ـ ٨٢) باختصار.

على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور؛ وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذٰلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وفّى هٰذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هٰذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد؛ لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذٰلك الربح، ويفوته الظفر به اهـ.

وقال رحمه الله تعالى(1): ويعينه على هٰذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم؛ استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم؛ اشتد عليه الحساب غداً. ويعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هٰذه التجارة: سُكنى الفِردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هٰذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، لا حظّ لها، يمكن أن يُشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هٰذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه؛ خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً، وإنما

---

(1) «إغاثة اللهفان» (1 / 80 - 81).

يظهر له حقيقة هٰذا الخسران يوم التغابن؛ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾(١).

فصل

ومن طرق الخلاص من شر النفس: ترك فضول الكلام والنظر والطعام والمخالطة والفكر؛ فإن هٰذه تسهل على الشيطان دخوله إلى النفس؛ كما تقدم.

ومنها: إشغال النفس في أوقات فراغها بنوافل الطاعات؛ من صلاة وصيام وتلاوة وذكر وفكر، وزيارة قبور، وعيادة مريض، وعلم نافع، وطلب رزق حلال، وغير ذٰلك من المستحبات، فإن النفس إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر.

ويعين على هٰذا؛ معرفة قيمة الوقت؛ الذي يضيعه العبد في غير طاعة الله عز وجل، والعمل لنيل رضاه، والزلفى عنده؛ في أبد لا يزول، ونعمة دائمة، وحياة ناعمة، وعيشة راضية، فمن عرف ذٰلك خاف أن تفوته لحظة في غير طاعة؛ واجبة أو مستحبة.

ويعينه عليه: النظر في سيرة أهل المسابقة إلى الخيرات؛ أهل القيام والصيام، أهل الذكر والفكر، أهل العلم والخشية.

وهٰذا يحتاج إلى همة عَلِيّة، ونفس غير دَنِيّة، ونية خالصة مَرْضِيّة، ولجوء واستعانة بالمولى الكريم، الهادي القدير؛ فالخير كله بيده، ولا معطي له إلا هو سبحانه، نسأله خير الدنيا وخير الآخرة.

فصل

ويتخلص من شر النفس: بالاستعاذة بالله من شرها؛ كما كان يقول رسول الله ﷺ في خطبة الحاجة: «ونَعوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا وَمِنْ سَيِّئاتِ

---

(١) آل عمران: ٣٠.

أَعْمَالِنا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال:

«قُل: اللَّهُمَّ! فاطِرَ السَّماوات والأَرْض، عالِمَ الغَيْب والشَّهادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ومَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَشِرْكِهِ». قال: «قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وإِذَا أَمْسَيْتَ، وإذا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»(٢).

وفي رواية: «وأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً، أَوْ أَجُرَّهُ إِلى مُسْلِمٍ».

ولابن القيم:

سَلِ الهِدَايَةَ مَنْ أَزِمَّةُ أَمْرِنا ... بِيَدَيْهِ مَسْأَلَةَ الذَّلِيلِ العَانِي
وَسَلِ العِياذَ مِن اثْنَتَيْنِ هُما اللَّتا ... نِ بِهُلْكِ هٰذا الخَلْقِ كافِيَتَانِ
شَرُّ النُّفُوسِ وَسَيِّئُ الأَعْمَالِ ما ... والله أَعْظَمُ مِنْهُما شَرَّانِ
ولَقَدْ أَتَى هٰذا التَّعَوُّذُ مِنْهُما ... فِي خُطْبَةِ المَبْعُوثِ بالقُرْآنِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي العَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ ... في هٰذِهِ الدُّنْيَا هُوَ الشَّرَّانِ
جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُما دَيْدانَهُ ... حَتَّى تَرَاهُ داخِلَ الأَكْفَانِ
وسَلِ العِياذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالهَوَى ... فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جامِعَتانِ
وَهُما يَصُدَّانِ الفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ ... قِ الخَيْرِ إِذْ في قَلْبِهِ يَلِجانِ

---

(١) بعض حديث أخرجه ابن ماجه (١٨٩٣) وغيره. وأخرجه مسلم (٨٦٨) مطولاً؛ لكن بدون هٰذه الجملة المذكورة.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٧)، والدارمي (٢ / ٢٩٢) بحرفه، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، وغيرهم، وهو في «صحيح الأدب» برقم (٩١٣)، والرواية الثانية فيه برقم (٩١٤)؛ لكن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فَتَــرَاهُ يَمْــنَـعُــهُ هَواهُ تارَةً وَالـكِـبْـرُ أُخْــرى ثُـمَّ يَشْـتَـركـانِ
والـلـهِ ما في الــنَّــارِ إلَّا تابِـعُ هٰذين فاسْــأَلْ ساكِـنـي الـنِّـيرانِ
والـلـهِ لَوْ جَرَّدْتَ نَفْسَـكَ مِنْهُمـا لأتَـتْ إلَـيْكَ وُفُـودُ كُلِّ تَهـانِ

فصل

ويتخلص من شر النفس: بالتزام صاحبها في تربيتها الطريقة السلفية الصحيحة، التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه، مجانباً في ذٰلك البدع المحدثات، والشعوذات والخرافات، ملتزماً العلم الصحيح الصافي، فينهل من معينه، ويعمل به، ويترك ما دونه مما لم يأذن به الشرع.

ومما يجب الابتعاد عنه، وترك العمل به؛ الأحاديث الضعيفة، التي ليس لها شاهد يقويها، وكذا الموضوعة، التي غالباً ما تقترن ببدعة ترفع سنة، ولا بد.

وإن تصفية العقل والعقيدة منها؛ يجعل النفس تستعد لتقبل ما يُلقى إليها من الأحاديث الصحيحة، وإحلالها من القلب المحل اللائق بها من القَبول والعمل ـ كما أفاد شيخنا حفظه الله تعالى[1] ـ.

ثم قال: وحينئذ تصفو روحك، ويستنير لبك، وتنجو من الأمراض الخفية؛ التي كانت ألمت بك بسبب سيطرة الأحاديث الواهية، التي يقترن بها دائماً التصديق بالخرافات والتّرّهات والأباطيل، فضلاً عن الأحكام والآراء المخالفة.

ثم لا بد لك مع ذٰلك من العناية بتربية نفسك، ومَن يلوذ بك؛ تربية إسلامية صحيحة، لا شرقية ولا غربية، وتخليقها بالأخلاق المحمدية، وبذٰلك يصلح قلبك، وتسعد في الدنيا قبل الآخرة اهـ.

---

(١) مقدمة «المجلد الثاني» من «السلسلة الضعيفة».

قلت: وأعظم ما يدخل في العلم الذي ذكرت؛ علم التوحيد؛ وهو العلم بالله تعالى، وعظمته، وتفرده بالألوهية وصفات الكمال؛ الموجبة لأن يُحَب وحده، ويُتوجه إليه بالعبادة وحده؛ بكل أنواعها؛ من صلاة وصيام، وتوبة وإنابة، وخوف ورجاء، وسائر عبادات القلب واللسان والجوارح.

وكذا تفرده بالربوبية للعالمين؛ من خَلق وإحياء وإماتة ورزق وضر ونفع... إلخ.

ويدخل في علم التوحيد؛ العلم بأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته المجيدة؛ ذات الكمال المطلق من كل وجه، وإثباتها له ـ عز وجل ـ دون غيره؛ على الوجه الذي يليق بجماله وجلاله وكماله.

وأكثر الخلق في غفلة عن هٰذا العلم الشريف، الذي هو أعظم العلوم، وأنفعها للعبد، وأفضلها على الإطلاق، وسائر العلوم إنما هي من أجل تحقيق هٰذا العلم، والعمل بما يمليه.

قال السعدي(١): المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسماء الله تعالى وصفاته، وتعبده بها لله، لا يُحَصِّل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه اهـ.

فصل

ويدخل في هٰذا العلم الشريف؛ العلم برقابة الله تعالى، وأنه مطلع على أعمال العباد وأقوالهم، عليم بذوات صدورهم، وهواجس نفوسهم، وأسرار

(١) «القول السديد» (ص ١٥٨).

سرائرهم[1].

فإذا تحقق العبد بمعرفة هٰذا الأمر، وامتلأ قلبه منه؛ زَكَتْ نفسه، وصلحت واستقامت، ولا شيء أنفع في صلاحها من هٰذا (أعني: دوام المراقبة لله عز وجل).

وقد صرح بذٰلك النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ؛ فَقَدْ ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، بِأَنَّهُ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ، وأَعْطَى زَكاةَ مالِهِ طَيِّبَةً بها نَفْسُهُ في كُلِّ عامٍ، ولَمْ يُعْطِ الهَرِمَةَ ولا الدَّرِنَةَ ولا المَرِيضَةَ، ولٰكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوالِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَها، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّها، وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رجل: وما تزكيةُ النفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كانَ»[2].

ويدخل في هٰذا العلم أيضاً؛ العلم بالنفس وأمراضها، وطرق علاجها وتزكيتها، والعلم بجناياتها، وعقوبات الله تعالى عليها، والعلم بثواب الطاعة في الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يدخل في العلم الذي به صلاح النفوس: العلم بالأحكام الشرعية؛ بأدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة.

ويجمع كل ما ذكرنا: العلم بكتاب الله تعالى، وما ثبت من سنة النبي

---

(١) وقد تقدم بيان شيء من هٰذا في «الباب الثاني» (ص ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٨٢)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٥ ـ الروض)، والبيهقي في «السنن» (٤ / ٩٥ ـ ٩٦)، وغيرهم، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٣٨)، وليس عند أبي داود جملة تزكية النفس.

ﷺ، وفهمهما بطريقة السلف الصالح ومنهجهم.

وما يحصله الناس من هٰذا العلم درجات كثيرة جداً، لا يحصيها إلا الله تعالى، وبقدر هٰذا العلم والعمل به؛ يكون فرار العبد إلى الله تعالى، وتكون سعادته في الدنيا والآخرة، وتوفيق المولى سبحانه من وراء ذٰلك كله.

فصل

ويتخلص من شر النفس: باستمداد التوفيق من الله تعالى؛ فإنه هو الموفق للخير، وبدون هدايته لا يمكن العبد أن يتخلص من شر نفسه، وهٰذا (أعني: طلب التوفيق من الله تعالى) هو أعظم ما يعين على الخلاص من شر النفس.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة، والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة ـ كل بحسبه ـ؛ لما حصَّل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3].

قال ابن القيم: فهٰذا الحب وهٰذه الكراهة؛ لم يكونا في النفس ولا بها؛

---

(١) النور: ٢١.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٢٧٥).

(٣) الحجرات: ٧ و٨.

ولٰكن هو الله الذي مَنَّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين؛ ﴿**فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَـةً واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾؛ عليم بمن يصلح لهٰذا الفضل، ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده، حكيم: فلا يضعه عند غير أهله، فيضيِّعه بوضعه في غير موضعه اهـ.

فعلى العبد أن يدعو ربه تعالى؛ أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين أبداً، ويتوسل إليه، وينطرح بين يديه، ويتذلل له، ويستغيث برحمته؛ أن لا يُحَكِّم به نفسه؛ فتهلكه هلاكاً لا يستطيع الخلاص منه.

ويدعـو ويقـول: «اللَّهُمَّ! إنِّي أَعُـوذُ بكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والبُخْلِ، والهَرَمِ وعَذابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ! آتِ نَفْسي تَقْواها، وَزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاها، أَنْتَ وَلِيُّها ومَوْلاها، اللَّهُمَّ! إنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتجابُ لَهَا»(١).

ويدعو بما أوصى به رسول الله ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها، وذٰلك قوله ﷺ لها:

«ما يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي ما أُوصيكِ بِهِ؟ أَنْ تَقُولي إذا أَصْبَحْتِ وإذا أَمْسَيْتِ: يا حَيُّ يا قَيُّومُ! بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغيثُ؛ أَصْلِحْ لي شَأْني كُلَّهُ، ولا تَكِلْني إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) وغيره؛ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «اللهم...» إلخ.

(٢) أخـرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٥٧٠)، والبزار (٤ / ٢٥ ـ كشف)، والحاكم (١ / ٥٤٥)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه غيرهم، وصحح إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ٤٥٧)، وهو في «الصحيحة» (رقم ٢٢٧).

قال ابن القيم[1]: أجمع العارفون بالله على أن الخِذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها، والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك.

وقال[2]: فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هٰذا وهٰذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخِذلانه، فمتى شهد العبد هٰذا المشهد، وأعطاه حقه؛ علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نَفَس، وكل لحظة وطرفة عين، وأنّ إيمانه وتوحيده بيده تعالى؛ لو تخلَّى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له: هو مَن يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه اهـ.

ووصف رحمه الله[3] النفس بالظلم والجهل، وذكر أن هٰذين الوصفين يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ثم قال: ومَن وَصْفه الجهل والظلم؛ لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، ومعرفة العبد هٰذا من نفسه؛ يوجب له بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هٰذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هٰذا شأنه؛ أن يرغب إلى خالقها وفاطرها؛ أن يقيه شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكّاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وَكَلَه إليها هلك؛ فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١ / ١٨٠).

(٢) «المدارج» (١ / ٤١٣).

(٣) «مدارج السالكين» (١ / ٢٢٠).

نفسه اهـ.

ومن أنفع الأدعية في الخلاص من شر النفس، ومن كل شر، بل ولجلب كل خير: دعاء العبد في صلاته بقول الله تعالى: **﴿اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ . صِراطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالينَ﴾**.

وعلى العبد أن يتنبه لمعنى هٰذا الدعاء العظيم، الذي هو أوجب دعاء على المكلفين، ومع وجوبه عليهم في كل يوم مرات عديدة، ففيه غاية صلاحهم وسعـادتهم في الدنيا والآخرة، مثله مثل سائر أوامر الحق تبارك وتعالى؛ التي ألزمهم بها لا لحاجة إليهم؛ إنما ليزكيهم ويسعدهم بها، فسبحانه! هو الغني الحميد، والكريم المنان.

* * * * *

العائق الثالث: الدنيا

اعلم أن الدنيا وزينتها من أعظم ما يشغل العبد عن طاعة الله عز وجل، ويصده عن الفرار إليه سبحانه، فلا يتسنى للعبد الاشتغال بطاعة الله، وطلب مرضاته؛ إلا بالزهد فيها، وبقدر ما يشتغل العبد بالدنيا ينصرف عن طاعة الله عز وجل، وبقدر انصراف همه عن الدنيا يتجه إلى تحصيل ما ينفعه في الآخرة، فهما (أعني: الدنيا والآخرة) ـ كما قيل ـ: كالمشرق والمغرب؛ كلما اقتربت من أحدهما بعدت عن الآخر.

فيلزم العبد الناصح لنفسه، الطالب لسعادتها؛ أن يزهد في هٰذه الدنيا الحقيرة الملعونة، فما هي إلا ظل زائل، ومتاع قليل ذاهب؛ كما قال الله سبحانه:

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كنفه[2]، فمرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ[3] ميت، فتناوله

---

(١) الرعد: ٢٦.

(٢) أي: جانبه.

(٣) قال ابن الأثير: أي: مصطلم الأذنين مقطوعهما. «نهاية». وقال: (الأسك) ـ أيضاً ـ: الصغير الأذن. «جامع الأصول».

فأخذه بأذنه، ثم قال:

«أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هٰذا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟». فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قالوا: والله! لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال:

«فَوَاللهِ؛ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذا عَلَيْكُمْ»[1].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه؛ قال: إني لفي الركب مع رسول الله ﷺ إذ أتى على سخلة[2] منبوذة[3]، قال: فقال:

«أَتَرَوْنَ هٰذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِها؟». قال: قيل: يا رسول الله! من هوانها ألقوها. قال:

«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذِهِ عَلَى أَهْلِهَا»[4].

قال ابن القيم[5]: لم يقتصر على تمثيلها بالسخلة الميتة، بل جعلها أهون على الله منها، وأكّد ذٰلك بالقسم الصادق، فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة.

وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة؛ لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها، أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٧) وغيره.

(٢) (السخلة): ولد الشاة من المعز أو الضأن؛ ذكراً كان أو أنثى. وقيل: ساعة تضعه أمه، وجمعه: سَخْل وسِخال. انظر: «لسان العرب».

(٣) أي: مطروحة.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٢١) وحسنه، وابن ماجه (٤١١١)، وغيرهما. وقال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢ / ٣٩٤): صحيح.

(٥) «العدة» (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) بتصرف يسير.

وعن سهل بن سعد؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَوْ كانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ ما سَقى كافِراً منها شَرْبَةَ ماءٍ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول:

«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ ما فيها؛ إلا ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالاهُ، أَوْ عَالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً»(٢).

والمراد بالدنيا الملعونة: كل ما يشغل العبد عن الله تعالى، ويبعده عن رضاه، ويصده عن ذكره وطاعته.

قال ابن القيم(٣): الدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولٰكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة، والإعراض عن الله والدار الآخرة؛ فصار هٰذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها؛ صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة، ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بهٰذا مدحاً وفضلاً.

لأولياء الله فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم؛ بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته، والتوكل

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠) وغيره، وصححه الألباني بطرقه في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٦٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وغيرهما. وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١ / ٣٤).

(٣) «عدة الصابرين» (ص ١٤٦).

عليه، والإنـابـة إليه، والأنس به، والفـرح بقربه، والتذلل له، ولذة مناجاته، والإقبال عليه، والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه ورُوحه؛ الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده اهـ.

وقال المناوي[1]: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ»: لأنها غرت النفوس بزهرتها ولذاتها، وأمالتها عن العبودية إلى الهوى، حتى سلكت غير طريق الهدى.

وقال الطيبي[2]: وكان حق الظاهر أن يكتفي بقوله: «وما والاهُ»؛ لاحتوائه على جميع الخيرات والفـاضـلات ومستحسنـات الشـرع، لٰكنه خصص بعد التعميم، دلالة على فضل العالم والمتعلم، وتفخيماً لشأنهما صريحاً، وإيذاناً بأن جميع النـاس سواهمـا همج، وتنبيهاً على أن المعني بالعالم والمتعلم: العلماء بالله، الجامعون بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء، وعالم لم يعمل بعلمه، ومن يعمل عمل الفضول وما لا يتعلق بالدين. وفيه: أن ذكر الله أفضل الأعمال، ورأس كل عبادة، والحديث من كنوز الحكم، وجوامع الكلم؛ لدلالته بالمنطوق على جميع الخلال الحميدة، وبالمفهوم على رذائلها القبيحة اهـ.

وقـال ابن القيم[3]: حب الـدنيا والرياسة هـو الذي عَمَّر النار بأهلها، والـزهـد في الدنيا والرياسة هو الذي عَمَّر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هٰذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد، ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر، وأنه أشد من سكر الخمر، والدنيا تسحر العقول أعظم سحر؛ قال الإمام أحمد: حدثنا سيار؛ حدثنا جعفر؛ قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السَّحَّارة،

---

(١) «فيض القدير» (٣ / ٥٤٩).

(٢) انظر: «فيض القدير» (٣ / ٥٤٩).

(٣) «عدة الصابرين» (ص ١٨٩ ـ ١٩٠).

اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء. وقال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان، من سَكِر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين.

وقال[1]: إن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة؛ لاشتغاله عنه بمحبوبه، والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه.

ومنهم من يشغله عن الواجبات؛ التي تجب عليه لله ولخَلقه؛ فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً.

ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات.

ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره.

ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه.

ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هٰذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟! هٰذا من أندرهم.

وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد؛ كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا اهـ.

وقال الشاعر[2]:

إنْ كُنْتَ يا صاحِ لَبِيباً حازِماً فَكُنْ لِأسْبابِ الهَوَى مُراغِما

(١) أي: ابن القيم؛ في المصدر السابق (ص ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) «المدهش» (ص ٥١٧).

لا تَهْـوَ دُنْـيَاكَ فَإِنَّ حُبَّـهـا رَأْسُ الـخَـطايا تُكْسِبُ المَـآثِمـا
غَرَّارَةٌ فَكُـلُّ مَنْ حلَّتْ لَهُ لا بُدَّ أَنْ تُذِيقَـهُ الـعَـلاقِـمـا
وإِنَّـمـا تَخْـدِمُ مَنْ أَهـانَـهَـا كمـا تُهِـينُ مَنْ أَتـاهـا خادِمـا
فَكُـنْ بِهـا مِثْـلَ غريبٍ مُصْـلِحٍ أَزْوادَهُ على الـرَّحِـيلِ عازِمـا
وبـادِرِ الأَيَّامَ قَبْـلَ فَوْتِـهـا مُخـاصِمـاً لِلنَّفْسِ أَوْ مُسـالِمـا
فَإِنَّـمـا عُمْـرُ الـفَـتَـى سُوقٌ لَهُ يَروحُ عَنْـهـا خاسِـراً أَوْ غانِـمـا

وقال أبو إسحاق الإلبيري [1]:

تَفُـتُّ فُؤادَكَ الأَيَّامُ فَتّـا وتَنْحِتُ جِسْمَـكَ السَّاعاتُ نَحْتا
وتَـدْعُـوكَ الـمَـنُـونُ دُعـاءَ صِدْقٍ أَلا يا صَاحِ أَنْـتَ أُرِيدُ أَنْـتـا
أَراكَ تُحِـبُّ عِرْسـاً ذاتَ غَدْرٍ أَبَـتَّ طَلاقَـهَـا الأَكْـيَاسُ بَتّـا
تَنامُ الـدَّهْـرَ وَيْحَـكَ في غَطِيطٍ بِهـا حَتَّـى إذا مِتَّ انْـتَـبَـهْـتَـا
فَكَـمْ ذا أَنْـتَ مَخْـدُوعٌ وَحَـتَّـى مَتـى لا تَرْعَـوِي عَنْـهـا وَحَـتَّـى

فصل

ومَثَّلَ الله سبحانه وتعالى الدنيا؛ فقال:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [2].

---

(١) «ديوانه» (ص ٢٥).

(٢) يونس: ٢٤ و٢٥.

قال السعدي[1]: وهٰذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا؛ فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذٰلك؛ يزهو لصاحبه إن زها وقتاً حقيراً، فإذا استكمل وتم؛ اضمحل وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها اهـ.

قال القاسمي[2]: ولما ذكر تعالى الدنيا، وسرعة تقضيها؛ رَغَّب في الجنة، ودعا إليها، وسمّاها: دار السلام؛ أي: من الآفات والنقائص؛ لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۞ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[4].

قال السعدي[5]: يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا، وما هي عليه، ويبيّن غايتها، وغاية أهلها؛ بأنها لعب ولهو؛ تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهٰذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات

---

(١) «التيسير» (٢ / ٣١٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٩ / ٢٤).

(٣) الكهف: ٤٥ و٤٦.

(٤) الحديد: ٢٠.

(٥) «التيسير» (٥ / ١٨١ ـ ١٨٣).

عمرهم بلهو قلوبهم، وغفلتهم عن ذكر الله، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، تراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ومعرفته ومحبته، وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله؛ من النفع القاصر والمتعدي.

وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾؛ أي: تَزَيُّنٌ في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذٰلك.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها.

﴿وتكاثُرٌ في الأَمْوالِ والأَوْلادِ﴾؛ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهٰذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا المطمئنين إليها، بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً، ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى دار كرامته، وإذا رأى من يكاثره وينافسه في الأموال والأولاد؛ نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً؛ بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار؛ الذين قصروا نظرهم وهممهم على الدنيا؛ جاءها من أمر الله ما أتلفها، فهاجت ويبست، وعادت إلى حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رُئِيَ لها مرأى أنيق، كذٰلك الدنيا؛ بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة؛ إذ أصابها القدر، فأذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذُهِبَ به عنها، فرحل منها صفر اليدين، ولم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحت هي غاية أمنيته، ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة، فهو الذي ينفع ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾؛ أي: حال الآخرة لا يخلو من هذين الأمرين؛ إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها، لمن كانت الدنيا هي غايته، ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله، وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة العقوبات، ورضوان من الله، يحل من أجله عليه دار الرضوان، لمن عرف الدنيا وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾؛ أي: إلا متاع يُتمتع به، ويُنتفع به، ويُستدفع به الحاجات، لا يَغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة؛ الذين يغرهم بالله الغرور اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(1).

فصل

والمتأمل هذه الآيات الكريمة يلاحظ أن الله عز وجل ذكر فيها التزهيد في الدنيا، وبين خسة قدرها، وبالمقابل رغب في الآخرة، وأظهر شرفها، وهذه هي الطريق للخلاص من حب الدنيا، والزهد فيها، وإخراجها من القلب؛ لأن

(1) آل عمران: ١٤ و١٥.

ترك العبد لما يحب من الدنيا؛ لا يمكن إلا لعوض ومحبوب خير منه وأكبر وأجل وأدوم، فيدعوه إيمانه وعقله إلى الزهد في القليل الزائل من أجل الكثير الدائم؛ كما بيّن ابن القيم في «فوائده» بقوله:

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا، وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها، والحرص عليها، وما في ذٰلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذٰلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهٰذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ـ ولا بد ـ، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هٰهنا، فهي؛ كما قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؛ فهي خيرات كاملة دائمة، وهٰذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هٰذان النظران؛ آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزَهِدَ فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل، واللذة الحاضرة، إلى النفع الآجل، واللذة الغائبة المنتظرة؛ إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص؛ كان ذٰلك إما لعدم تَبَيُّن الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا، الحريص عليها، المؤثر لها؛ إما أن يصدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدِّق، فإن لم يصدق بذٰلك كان

عادماً للإيمـان رأساً، وإن صدَّق بذلك ولم يؤثره؛ كان فاسد العقل، سيىء الاختيار لنفسه، وهذا تقسيم حاضر ضروري، لا ينفك العبد من أحد القسمين منـه، فإيثار الدنيا على الآخرة؛ إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما اهـ.

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما الدُّنْيا في الآخِرَةِ؛ إلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هٰذهِ ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟»[1].

قال ابن القيم[2]: وهذا من أحسن الأمثال، فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السماوات والأرض مملوءتان خردلاً، وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة، لفني الخردل، والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل؛ كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل اهـ.

فصل

وقـد توعـد الله تعالى أشد وعيد؛ مَن اطمأن إلى الدنيا ومتاعها الفاني القليل، ورضي بهـا دون الآخـرة، وما فيها من ثواب جزيل ونعيم عظيم؛ لا منقطع ولا ممتنع؛ فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[3].

---

(1) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) وغيره.

(2) «عدة الصابرين» (ص ٢٠٢).

(3) يونس: ٧ و٨.

وقال سبحانه معاتباً المتثاقلين عن الجهاد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(١).

وفي «عدة الصابرين»(٢): إن عاشق الدنيا ومحبها، الذي يؤثرها على الآخرة؛ من أسفه الخلق، وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي:

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائِلٍ إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ اهـ

وبيّن المولى سبحانه سرعة انقضاء الدنيا وزوالها، وأن أهلها إذا عاينوا الآخرة، لم يغن عنهم ما كانوا فيه من نعيم الدنيا، مهما كثر وطال؛ فقال سبحانه:

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ

---

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) (ص ١٩٤).

(٣) الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٤) يونس: ٤٥.

﴿يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾(٥).

* * * * *

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) النازعات: ٤٢ - ٤٦.

(٣) الروم: ٥٥.

(٤) المؤمنون: ١١٢ - ١١٤.

(٥) طه: ١٠٢ - ١٠٤.

فصل

فيما يقوى العبد على الزهد في الدنيا

أهم ذٰلك معرفة الدنيا وقدرها، وأنها خسيسة حقيرة، كما أنها قصيرة زائلة، ومعرفة الآخرة وشرفها، وما أعده الله تعالى فيها لأهل الجنة؛ من النعيم المقيم، واللذات الدائمة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإدامة الفكر في ذٰلك.

فإن الزهد في الشيء لا تسخو النفس به إلا لما هو أكبر منه وأعظم ـ كما تقدم ـ، وقد علم المؤمنون أن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كنقطة في بحر، ولٰكن لما كانت الآخرة ولذاتها غيباً، والدنيا وشهواتها شهادة؛ كان لا بد من إدامة الفكر في الآخرة ونعيمها، حتى تصير للقلب كالمشاهد بالعين.

فإذا وصل العبد إلى هٰذا الحال؛ هانت عليه المكاره، وسهلت عليه الطاعات، وتيسر له اجتناب الشهوات المحرمات، ولم يبع الجنة العالية الغالية، بالدنيا الدنية الفانية، المنقطعة الشهوات، المنغصة اللذات، بل صبر في الأيام القليلة، والمدة القصيرة؛ ليفوز بالخلود الأبدي، والنعيم السرمدي.

ولقد أحسن من قال:

فَحَيَّ على جَنَّاتِ عَدْنٍ بِقُرْبِهِمْ ... منازِلُكَ الأولى بِها كُنْتَ نازِلا

ولٰكِنْ سَباكَ الكاشِحُونَ لِأَجْلِ ذا ... وَقَفْتَ على الأَطْلالِ تَبْكِي المَنازِلا

فَدَعْهـا رُسُـوماً دارسـاتٍ فَما بِهـا مَقِيلٌ فَجـاوِزْهَـا فَلَيْسَـتْ مَنـازِلا
رُسومٌ عَفَتْ يَفْنى بِها الخَلْقُ كَمْ بِها قَتِيـلٍ وَكَـمْ فِيهـا لِذا الخَلْقِ قاتِـلا
وخُـذْ يَمْنَةً عَنْها على المَنْهَجِ الَّذي عَلَيْهِ سَرَى وَفْـدُ الـمَـحَبَّـةِ آهِـلا
وَقُـلْ ساعِـدي يا نَفْسُ بِالصَّبْرِ ساعَةً فَعِنْـدَ اللُّقى ذا الكَـدِّ يُصْبِـحُ زائِـلا
فمـا هِيَ إلَّا ساعَـةً ثُمَّ تَنْـقَـضِـي ويُصْبِـحُ ذُو الأحْـزانِ فَرْحَـانَ جاذِلا

وعن عتبة بن عبد رضي الله عنه؛ قال: إن رسول الله ﷺ قال:

«لَوْ أَنَّ رَجُلاً يُجَرُّ على وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرَماً في مَرْضَاةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لَحَقَّرَهُ يَوْمَ القِيامَةِ»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ويُؤتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤساً في الدُّنيا، مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الجَنَّةِ، فيُقالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّة قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ما مَرَّ بِي بُؤسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(٢).

فصل

ويَسْهل تحصيل ما ذكرته بتدبر ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ من ذكر الجنة، وما فيها من أصناف اللذات، وفنون الشهوات، وأنواع المسرات؛ من الأطعمة الشهية، والأشربة اللذيذة، والفاكهة النضيجة، والألبسة الفاخرة، والحُليّ البراق، والمتكأ الحسن البهي، والفراش الناعم العبقري، والزوجات الجميلات، والغرف العاليات، وغير ذلك مما لا يحاط بصفته، ولا يدرك كنهه.

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٨٥) وغيره، وهو في «الصحيحة» (رقم ٤٤٦).

(٢) بعض حديث أخرجه مسلم (٢٨٠٧) وغيره.

أما الطعام؛ فقال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾(٣).

قال السعدي(٤): ﴿**يَدْعُونَ فيها**﴾؛ أي: الجنة، ﴿**بِكُلِّ فاكِهَةٍ**﴾؛ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أُحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة. ﴿**آمِنِينَ**﴾ من انقطاع ذٰلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت.

وأما الشراب؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾(٥).

وقال سبحانه: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ * عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾(٦).

قال ابن كثير(٧): ﴿**وفي ذٰلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ**﴾؛ أي: وفي مثل هٰذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون؛ كقوله تعالى: ﴿**لِمِثْلِ هٰذا فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ**﴾.

---

(١) الواقعة: ٢٠ و٢١.

(٢) الطور: ٢٢.

(٣) الدخان: ٥٥.

(٤) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٤ / ٤٧٢).

(٥) الإنسان: ٥ و٦.

(٦) المطففين: ٢٥ ـ ٢٨.

(٧) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٨٧).

وقوله تعالى: ﴿ومِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾؛ أي: ومزاج هٰذا الرحيق الموصوف من تسنيم؛ أي: من شراب يقال له: تسنيم؛ وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، قاله أبو صالح والضحاك، ولهٰذا قال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بها المُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً، قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم[1] اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[2].

قال السعدي[3]: ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾؛ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر.

وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٍ للشَّارِبينَ﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة؛ لا فيها غول العقل وذهابه ونزفه، ونزف مال صاحبه، وليس فيها صداع ولا كدر.

ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[5].

---

(١) وصحح إسناده عن ابن عباس الحافظ في «الفتح» (٦ / ٣٢١).

(٢) الصافات: ٤٥ ـ ٤٧.

(٣) «التيسير» (٤ / ٢٥٨).

(٤) الطور: ٩، والمرسلات: ٤٣.

(٥) الحاقة: ٢٤.

قال السعدي[1]: ﴿هَنِيئاً﴾؛ أي: متهنئين بذلك على وجه البهجة والفرح والسرور والحبور.

وقال[2]: ولا يتم هناؤه؛ حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل.

وأما اللباس؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[4].

و(السندس): ما رقَّ من الديباج، و(الإستبرق): الغليظ منه.

قال ابن كثير[5]: (السندس): ثياب رفاع رقاق؛ كالقمصان وما جرى مجراها، وأما (الإستبرق)؛ فغليظ الديباج، وفيه بريق.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: أهدي للنبي ﷺ جُبَّة سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال:

«والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَمَنادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ في الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هٰذا»[6].

و(المناديل): ما يمسح بها يديه، وهي أفضل وأرق وألين من حُلل

---

(١) «التيسير» (٥ / ١١١).

(٢) «التيسير» (٥ / ٣٥٧).

(٣) الحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣.

(٤) الكهف: ٣١.

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٨٢).

(٦) أخرجه البخاري (٥ / ٢٣٠ و٦ / ٣١٩ ـ فتح)، ومسلم (٢٤٦٩)، وغيرهما. والذي أهدى الهدية هو أُكَيْدِرُ دَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأكيدر اسمه، وهو ملك دَومة الجندل، وكان نصرانياً، ودَومة الجندل مدينة بقرب تبوك. انظر: «الفتح» (٥ / ٢٣١).

الملوك.

وأما **الحليّ**؛ فقال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾(٢).

قال السعدي(٣): ﴿**يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ**﴾؛ وهو الحلي الذي يجعل في اليدين على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿**و**﴾ يحلون فيها ﴿**لؤلؤاً**﴾؛ ينظم في ثيابهم وأجسادهم اهـ.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت خليلي ﷺ يقول:

«تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوَضُوءُ»(٤).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«لَوْ أَنَّ ما يُقِلُّ ظُفْرٌ مِمَّا فِي الجَنَّةِ بدا؛ لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ ما بَيْنَ خوافِقِ السَّماواتِ والأَرْضِ، ولَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدا أَساوِرُهُ؛ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ؛ كما تَطْمُسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجوم»(٥).

وأما **المتكأ**؛ فقال الله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾(٦).

---

(١) الكهف: ٣١.

(٢) الحج: ٢٣ وفاطر: ٣٣.

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٤/ ٢١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٠) وغيره.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٣٨)، وغيره، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٥١٢٧).

(٦) الإنسان: ١٣ و١٤.

قال السعدي[1]: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأرائِكِ﴾؛ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية. و(الأرائك): هي السرر التي عليها اللباس المزين.

قال: ﴿ودانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطوفُها تَذْلِيلاً﴾؛ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع اهـ.

وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: ﴿مَصْفُوفَة﴾؛ أي: وجوه بعضهم إلى بعض؛ كقوله ﴿على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[4].

وقال الله عز وجل: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۞ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾[5].

قال ابن القيم[6]: أخبر تعالى عن سررهم بأنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض، ولا بعيداً من بعض، وأخبر أنها موضونة، و(الوَضْن) في اللغة: النّضْد، والنسج المضاعف، يقال: وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض، فهو موضون. قالوا: ﴿مَوْضُونَةٍ﴾: منسوجة بقضبان الذهب، مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد.

وقال[7]: (الأريكة) تجمع ثلاثة أشياء؛ أحدها: السرير. والثانية:

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٥ / ٣٤٨).

(٢) الطور: ٢٠.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٤١).

(٤) الصافات: ٤٤.

(٥) الواقعة: ١٥ و١٦.

(٦) «حادي الأرواح» (ص ٢١٠) باختصار.

(٧) انظر: «حادي الأرواح» (ص ٢١١).

الحجلة؛ وهي البشخانة التي تعلق فوقه. والثالث: الفراش الذي على السرير، ولا يسمى السرير أريكة حتى يجمع ذٰلك كله اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾(١).

قال السعدي(٢): متكؤهم على الرفرف الأخضر، وهي: الفرش التي تحت المجالس العالية؛ التي قد زادت على مجالسهم؛ فصار لها رفرف من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن المنظر.

﴿وعَبْقَـرِيٍّ حِسانٍ﴾؛ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهٰذا وصفها بالحُسن الشامل؛ لحسن الصفة والمنظر، ونعومة الملمس.

قال ابن القيم في معنى «الرفرف»(٣): أصل هٰذه الكلمة من الطرف أو الجانب، فمنه الرفرف في الحائط، الواحدة: رفرفة، ومنه رفرف الطير: إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، وكل ما فضل من شيء فثني وعطف فهو رفرف اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾(٤).

قال ابن القيم(٥): فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهٰذا يدل على أمرين:

أحدهما: أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها؛ لأن بطائنها للأرض،

---

(١) الرحمٰن: ٧٦.

(٢) «التيسير» (٥ / ١٥٦).

(٣) «حادي الأرواح» (ص ٢٠٧) باختصار.

(٤) الرحمٰن: ٥٤.

(٥) «حادي الأرواح» (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) باختصار.

وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

والثاني: يدل على أنها فرش عالية، لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة.

وقال السعدي[1]: ﴿**مُتَّكِئِينَ على فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ**﴾؛ هٰذه صفة فرش أهل الجنة، وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها؛ أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة؛ كجلوس الملوك على الأسرة، وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرق؛ وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي يباشرون؟!

وقال الله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[2].

قال ابن القيم في «حادي الأرواح»[3]: أما (النمارق)؛ فقال الواحدي: هي الوسائد في قول الجميع، واحدها: نُمْرقة.

﴿**وَزَرَابِيُّ**﴾؛ بمعنى: البسط والطنافس، واحدها: زربية في قول جميع أهل اللغة والتعبير.

و ﴿**مَبْثُوثَةٌ**﴾: مبسوطة منشورة.

وقال السعدي[4]: ﴿**وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ**﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما؛ مما لا يعلمه إلا الله، قد صُفت للجلوس والاتكاء عليها،

---

(١) «التيسير» (٥ / ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) الغاشية: ١٣ ـ ١٦.

(٣) انظر: (ص ٢٠٧).

(٤) «التيسير» (٥ / ٤٠٩).

وقد أُريحوا عن أن يضعوها أو يصُفّوها بأنفسهم.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾؛ والزرابي: هي البسط الحسان، مبثوثة؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

وأما الأزواج؛ فقال الله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[1].

قال ابن القيم[2]: (الحور): جمع حوراء؛ وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء، شديدة سواد العين. و(العِين): اللائي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.

وقال[3]: (العِين): جمع عيناء، وهي: المرأة الواسعة العين، مع شدة سوادها، وصفاء بياضها، وطول أهدابها وسوادها.

قال الطبري[4]: هن في صفاء بياضهن وحسنهن؛ كاللؤلؤ المكنون؛ الذي قد صين في كِنّ[5].

وشبههن سبحانه بالبيض المكنون؛ فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۞ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[7].

---

(١) الواقعة: ٢٢ و٢٣.

(٢) «الحادي» (ص ٢١٥).

(٣) «روضة المحبين» (ص ١٤٢).

(٤) «جامع البيان» (٢٧ / ١٠٢).

(٥) هو كل ما يردّ الحرّ والبرد.

(٦) الصافات: ٤٨ و٤٩.

(٧) الرحمٰن: ٥٨.

أي: كالياقوت في صفائه، والمرجان في بياضه[1]، وهٰذا قول عامة المفسرين[2].

وقال ابن القيم[3]: فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه، وحسن بياضه، ونعومة ملمسه، وخذ من البيض المكنون؛ وهو المصون؛ الذي لم تنله الأيدي؛ اعتدال بياضه، وشوبه بما يحسنه من قليل صفرة، بخلاف الأبيض الأمهق المتجاوز في البياض، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه؛ في صفائه وإشرابه بيسير من الحمرة اهـ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْواتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ:

نَحْنُ الخَيْراتُ الحِسانْ
أَزْواجُ قَوْمٍ كِرامْ
يَنْظُرْنَ بِقُرَّةِ أَعْيانْ

وإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ:

نَحْنُ الخالِداتُ فلا يَمُتْنَهْ
نَحْنُ الآمِناتُ فَلا يَخَفْنَهْ
نَحْنُ المُقِيماتُ فَلا يَظْعَنَّهْ»[4]

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٧ / ٨٨)، و«زاد المسير» (٨ / ١٢٢).

(٢) «حادي الأرواح» (ص ٢١٨).

(٣) «روضة المحبين» (ص ٢٤٥).

(٤) رواه الطبراني في «الصغير» (٧٣٤) بلفظه، ورواه في «الأوسط» مختصراً؛ انظر: «صحيح الجامع» (رقم ١٥٥٧).

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«إِنَّ للمُؤمِنِ في الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤلُؤةٍ واحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُها سِتُّونَ مِيلاً، للمُؤمِنِ فيها أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤمِنُ، فلا يَرى بَعْضُهُمْ بَعْضاً»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ في الجَنَّةِ لَسُوقاً، يَأْتُونَها كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمالِ، فَتَحْثُو في وُجُوهِهِمْ وَثِيابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْناً وَجَمالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: واللهِ؛ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسْناً وجَمالاً، فَيَقُولونَ: وأَنْتُمْ واللهِ؛ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسْناً وجَمالاً»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ أنه قال:

«لَـرَوْحَةٌ فِي سَبيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها، ولَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ ما بَيْنَهُما، ولَمَلأَتْهُ رِيحاً، وَلَنَصِيفُها على رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فيها»(٣).

وأما الغُرَف؛ فقال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾(٤).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٦٢٤ ـ فتح)، وفي مواضع أخر، ومسلم (٢٨٣٨) بحرفه، والترمذي (٢٥٢٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٣) وغيره.

(٣) أخرجه البخاري (٦ / ١٥ ـ فتح)، ومسلم (١٨٨٠) مختصراً، وغيرهما.

(٤) الزمر: ٢٠.

«إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتراءَوْنَ[1] أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ؛ كَما تَتَراءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ[2] في الأُفُقِ[3] مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بَيْنَهُمْ». قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء، لا يبلغهم غيرهم؟ قال:

«بَلَى؛ والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ؛ رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»[4].

وعن علي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً تُرى ظُهُورُها مِنْ بُطُونِها، وَبُطُونُها مِنْ ظُهُورِها». فقام أعرابي، فقال: لمن هي يا رسول الله؟ فقال:

«لِمَنْ أَطابَ الكلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعامَ، وأَدامَ الصِّيامَ، وصَلَّى للهِ باللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ»[5].

ووصف رسول الله ﷺ بناء الجنة؛ فقال:

«لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، ومِلاطُها[6] المِسْكُ الأَذْفَرُ[7]،

---

(١) المعنى: أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل، حتى إن أهل الدرجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم، وقد بين ذٰلك في الحديث بقوله: «لتفاضل ما بينهم». «فتح».

(٢) (الغابر): الذاهب الماشي؛ أي: الذي تَدَلَّى للغروب، وبَعُدَ عن العيون. «نووي».

(٣) أي: السماء.

(٤) أخرجه البخاري (٦ / ٣٢٠ و١١ / ٤١٦ - فتح)، ومسلم (٢٨٣١)، وغيرهما.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٨٤) وضعفه، لٰكن له شواهد من أجلها حسنه الألباني في «تخريج المشكاة» تحت الحديث رقم (١٢٣٣).

(٦) أي: ما بين اللبنتين من الطين. انظر: «فيض القدير» (٣ / ٣٦٣)، و«تحفة الأحوذي» (٧ / ٣٩٩).

(٧) أي: الشديد الريح.

وحَصْبـاؤهـا[1] اللُّؤلُؤ والياقوتُ، وتُرْبَتُها الزَّعْفَرانُ، مَنْ دَخَلَها يَنْعَمُ ولا يَبْأَسُ، ويَخْلُدُ ولا يَموتُ، لا تَبْلَى ثِيابُهُمْ، ولا يَفْنى شَبَابُهُمْ»[2].

فصل

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«أوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، والَّذينَ على إثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إضاءَةً، قُلوبُهُمْ على قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ ولا تَباغُضَ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ زَوْجَتانِ؛ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُما يُرى مُخُّ ساقِها مِنْ وراءِ لَحْمِها مِنَ الحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيّاً، لا يَسْقَمُونَ، ولا يَمْتَخِطُونَ، ولا يَبْصُقونَ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ والفِضَّةُ، وأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، ووَقُودُ مَجامِرِهِمُ[3] الأَلُوَّةُ؛ [الأَلَنْجُوجُ[4]: عُودُ الطِّيبِ]، ورَشْحُهُمُ المِسْكُ»[5].

وعنه وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ قال[6]:

«يُنادِي مُنادٍ: إنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أَبداً، وإنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا

---

(١) أي: حصاؤها الصغار.

(٢) بعض حديث أخرجه الدارمي (٢ / ٣٣٣)، والترمذي (٢٥٢٦)، وغيرهما، وهو في «صحيح الجامع» (رقم ٣١١١).

(٣) (المجامر): جمع مجمرة، وهي المبخرة، سميت مجمرة؛ لأنها يوضع فيها الجمر؛ ليفوح به ما وضع فيها من البخور. «الفتح» (٦ / ٣٢٤).

(٤) (الألنجوج): هو العود الذي يتبخر به، ولفظ «الألنجوج» هنا تفسير الألوة، و«العود» تفسير التفسير. «الفتح» (٦ / ٣٦٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦ / ٣١٨ و٣١٩ و٣٢٠ و٣٦٢ ـ فتح)، والزيادة له، ومسلم (٢٨٣٤)، وغيرهما.

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٣٧) وغيره.

تَهْرَمُوا أَبداً، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبداً، فذٰلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**ونُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[1]».

هٰذا وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْراً، بَلْهَ ما أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ»[2].

فصل

وبالجملة؛ فالجنة دار النعيم الأبدي الكامل، الذي لا عيب فيه قط، ولا يعتريه نقص بوجه.

ولابن القيم:

وإِنْ حُجِبَتْ عنَّا بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... وحُفَّتْ بِما يُؤذِي النُّفُوسَ ويُؤلِمُ
فللهِ ما في حَشْوِها مِنْ مَسَرَّةٍ ... وأَصْنَافِ لَذَّاتٍ بِهَا يُتَنَعَّمُ
ولِلهِ بَرْدُ العَيْشِ بَيْنَ خِيامِها ... ورَوْضَاتِها والثَّغْرُ فِي الرَّوْضِ يَبْسُمُ
ولِلهِ وادِيها الَّذي هُوَ مَوْعِدُ الْـ ... ـمَزِيدِ لِوَفْدِ الحُبِّ لَوْ كُنْتَ مِنْهُمُ

---

(١) الأعراف: ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٣١٨ و٨ / ٥١٥ و١٣ / ٤٦٥ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٢٤)، وغيرهما.

ومعنى (ذخراً)؛ أي: جعلت ذٰلك لهم مدخوراً. و(بله ما أطلعكم الله عليه)؛ معناه: دع عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. فإن أُضيفت «من» في أول الكلام؛ أي: «من بَلْهِ ما أطلعكم الله عليه»؛ كان المعنى: من غير ما أطلعكم الله عليه. انظر: «الفتح» (٨ / ٥١٦ ـ ٥١٧).

بذَيَّالِكَ الوادِي يَهِيمُ صبابَةً … مُحِبٌّ يَرى أَنَّ الصَّبابَةَ مَغْنَمُ
ولِلهِ أَفْراحُ المُحِبِّينَ عِنْدَما … يُخاطِبُهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيُسَلِّمُ
ولِلهِ أَبْصارٌ ترى اللهَ جَهْرَةً … فَلا الضَّيْمُ يَغْشاها ولا هِيَ تَسْأَمُ
فيا نَظْرَةً أَهْدَتْ إِلى الوَجْهِ نَضْرَةً … أَمِنْ بَعْدِها يَسْلُو المُحِبُّ المُتَيَّمُ
ولِلهِ كَمْ مِنْ خَيْرَةٍ إِنْ تَبَسَّمَتْ … أَضاءَ لَها نورٌ مِنَ الفَجْرِ أَعْظَمُ
فيا لَذَّةَ الأَبْصارِ إِنْ هِيَ أَقْبَلَتْ … ويا لَذَّةَ الأَسْماعِ حِينَ تَكَلَّمُ
ويا خَجْلَةَ الغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذا انْثَنَتْ … ويا خَجْلَةَ الفَجْرَيْنِ حِينَ تَبَسَّمُ
فإِنْ كُنْتَ ذا قَلْبٍ عَلِيلٍ بِحُبِّها … فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ وَصْلُها لَكَ مَرْهَمُ
ولا سِيَّما في لَثْمِها عِنْدَ ضَمِّها … وَقَدْ صارَ مِنْها تَحْتَ جِيدِكَ مِعْصَمُ
تراهُ إِذا أَبْدَتْ لَهُ حُسْنَ وَجْهِها … يَلَذُّ بِهِ قَبْلَ الوِصالِ وَيَنْعَمُ
تَفَكَّهُ مِنْها العَيْنُ عِنْدَ اجْتِلائِها … فواكِهَ شَتَّى طَلْعُها لَيسَ يُعْدَمُ
عَناقِدَ مِنْ كَرْمٍ (١) وَتُفَّاحَ جَنَّةٍ … وَرُمَّانَ أَغْصانٍ بِهِ القَلْبُ مُغْرَمُ
ولِلْوَرْدِ ما قَدْ أَلْبَسَتْهُ خُدُودُها … ولِلخَمْرِ ما قَدْ ضَمَّهُ الرِّيقُ والفَمُ
تَقَسَّمَ مِنْها الحُسْنُ في جَمْعِ واحِدٍ … فيا عَجَباً مِنْ واحِدٍ يَتَقَسَّمُ
لها فِرَقٌ شَتَّى مِنَ الحُسْنِ أَجْمَعَتْ … بِجُمْلَتِها أَنَّ السُّلُوَّ مُحَرَّمُ
تُذَكِّرُ بالرَّحْمٰنِ مَنْ هُوَ ناظِرٌ … فَيَنْطِقُ بالتَّسْبِيحِ لا يَتَلَعْثَمُ
إِذا قابَلَتْ جَيْشَ الهُمُومِ بِوَجْهِها … تَوَلَّى على أَعْقابِهِ الجَيْشُ يُهْزَمُ
فيا خاطِبَ الحَسْناءِ إِنْ كُنْتَ راغِباً … فَهٰذا زَمانُ المَهْرِ فَهُوَ المُقَدَّمُ
ولَمَّا جَرَى ماءُ الشَّبابِ بِغُصْنِها … تَيَقَّنَ حَقّاً إِنَّهُ لَيْسَ يَهْرَمُ

---

(١) قد ثبت عن النبي ﷺ النهي عن تسمية العنب كرماً، ففي «صحيح البخاري» (١٠ / ٥٦٤ ـ فتح)؛ عن أبي هريرة يرفعه: «لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ، ولا تَقُولُوا: خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ». وفي رواية (١٠ / ٥٦٦ ـ فتح): «وَيَقُولُونَ: الكَرْمُ، إِنَّما الكَرْمُ قَلْبُ المُؤمِنِ». والحديث في «صحيح مسلم» (٢٢٤٧) بألفاظ عدة؛ منها: «لا تَقُولُوا: كَرْمٌ؛ فَإِنَّ الكَرْمَ قَلْبُ المُؤْمِنِ».

وَكُنْ مُبْغِضاً للخائِناتِ لِحُبِّها فَتَحْظَى بِها مِنْ دُونِهِنَّ وَتَنْعَمُ
وَكُنْ أَيِّماً مِمَّنْ سِواها فَإِنَّها لِمِثْلِكَ في جَنَّاتِ عَدْنٍ تَأَيَّمُ
وصُمْ يَوْمَكَ الأدْنى لَعَلَّكَ فِي غَدٍ تَفُوزُ بِعِيدِ الفِطْرِ والنَّاسُ صُوَّمُ
وأَقْدِمْ ولا تَقْنَعْ بِعَيْشٍ مُنَغَّصٍ فما فازَ باللَّذَّاتِ مَنْ لَيْسَ يُقْدِمُ
وإِنْ ضَاقَتِ الدُّنْيا عَلَيْكَ بِأَسْرِها وَلَمْ يَكُ فِيها مَنْزِلٌ لَكَ يُعْلَمُ
فَحَيَّ على جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها مَنَازِلُكَ الأولى وفيها المُخَيَّمُ
وَحَيَّ على السُّوقِ الَّذي فِيهِ يَلْتَقِي الـ ـمُحِبُّونَ ذاكَ السُّوقُ للقَوْمِ يُعْلَمُ
فما شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بلا ثَمَنٍ لَهُ فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ فيهِ وأَسْلَمُوا
وَحَيَّ على يَوْمِ المَزِيدِ الَّذي بِهِ زِيارَةُ رَبِّ العَرْشِ فَاليَوْمُ مَوْسِمُ

وقال رحمه الله تعالى(١): من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفد؛ بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنغص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلاً؛ أبكى كثيراً، وإن سر يوماً؛ أحزن شهوراً، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسراته، أوله مخاوف، وآخره متالف، فيا عجباً من سفيه في صورة حليم! ومعتوه في مسلاخ عاقل! آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس.

ثم قال رحمه الله: وإنما يظهر الغبن الفاحش في هٰذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة، إذا حشر المتقون إلى الرحمٰن وفداً، وسيق المجرمون إلى جهنم ورداً.

وقال(٢):

---

(١) مقدمة «حادي الأرواح».
(٢) «القصيدة النونية» (ص ٢٤٩).

يا مُعْـرِضـاً عَمَّـا يُرادُ بِهِ وَقَـدْ جَدَّ الـمَـسِـيرُ فَمُـنْـتَـهَـاهُ دانِ
جَذْلانَ يَضْـحَـكُ آمِـنـاً مُتَبَخْتِـراً فَكَـأَنَّـهُ قَدْ نالَ عَقْـدَ أَمـانِ
خَلَعَ الـسُّـرورُ عَلَيْهِ أَوْفـى حُلَّةٍ طَرَدَتْ جَمِـيعَ الـهَـمِّ وَالأَحْـزانِ
يَخْتـالُ في حُلَلِ الـمَسَـرَّةِ ناسِياً ما بَعْـدَهـا مِنْ حُلَّةِ الأَكْـفـانِ
ما سَعْيُهُ إِلَّا لِطِيبِ العَيْشِ في الـدْ دُنْـيا وَلَـوْ أَفْـضَـى إِلى الـنِّـيرانِ
قَدْ باعَ طِيبَ الـعَيْشِ فِي دارِ النَعِيـ ـمِ بِذا الحُطامِ المُضْمَحِلِّ الفانِي

وقـال ابن الجوزي(١): من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة؛ في صفاء بلا كدر، ولذات بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس، والزيادة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من غير تغيير ولا زوال، إذ لا يقال: ألف ألف سنة، ولا مئة ألف ألف، بل ولو أن الإنسان عد الألـوف ألوف السنين؛ لا ينقضي عدده، ولا كان له نهاية، فبقاء الآخرة لا نفاد له؛ إلا أنه لا يحصل ذٰلك إلا بنقد هٰذا العمر.

وما مقدار عمر غايته مئة سنة؛ منها خمسة عشر صبوة وجهل، وثلاثون بعد السبعين ـ إن حصلت ـ ضعف وعجز، والتوسط نصفه نوم، وبعضه زمان أكل وشرب وكسب، والمنتَحل منه للعبادات يسير.

أفلا يُشترى ذٰلك الدائم بهٰذا القليل؟ إن الإعراض عن الشروع في هٰذا البيع والشراء لغبن فاحش في العقل، وخلل داخل في الإيمان بالوعد.

وفي «لطائف المعارف»(٢): مَن عرف الدنيا حق معرفتها حقَّرها وأبغضها؛ كما قيل:

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣٤٣).
(٢) (ص ٢٨).

أَمـا لو بِيعَـتِ الـدُّنْـيا بِفَـلْسٍ   أَنِـفْـتُ لِعـاقِـلٍ أَنْ يَشْتَـرِيهـا

ومن عرف الآخرة وعظمتها رغب فيها.

فصل

ويقوي على الزهد في الدنيا، ويعين عليه: النظر في سيرة من زهد فيها، فإن هٰذا مما يبعث في النفس الشريفة الهمة لذٰلك؛ فتعمل على التشبه بهم:

إِنَّ للهِ عِبـاداً فُطَنَـا   طَلَّقُـوا الـدُّنْيا وخـافُـوا الفِتَنَـا
نَظَرُوا فيهـا فَلَمَّـا عَلِمُـوا   أَنَّـهـا لَيْسَـتْ لِحَيٍّ وَطَـنـا
جَعَـلُوهـا لُجَّـةً واتَّـخَـذُوا   صالِـحَ الأَعْمـالِ فيهـا سُفُنـا

وسيِّد الزهاد، ومن أمرنا باتباع سنته؛ محمّد ﷺ؛ الذي قال: «لَوْ كَانَ عِنْدِي أُحُدُ ذَهَباً؛ لأَحْبَبْتُ أَنْ لَا يَأْتِيَ عَلَيَّ ثَلاثٌ وعِنْدِي مِنْهُ دِينارٌ، لَيْسَ شَيْءٌ أَرْصُدُهُ في دَيْنٍ عَلَيَّ أَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهُ»(١).

وعن عمرو بن الحارث رضي الله عنه؛ قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً؛ إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا رسول الله! لو

---

(١) أخرجه البخاري (٥ / ٥٥ و١١ / ٢٦٤ و١٣ / ٢١٧ - فتح) وغيره؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥ / ٣٥٦ و٦ / ٧٥ و٩٧ و٢٠٩ و٨ / ١٤٨ - فتح) وغيره. وأخرجه مسلم (١٦٣٥) وغيره؛ عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا شاةً، ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء».

اتخذت فراشاً أوثر[1] من هٰذا. فقال:

«ما لي وللدُّنْيا، وما للدُّنْيا وما لِي، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ ما مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيا إِلَّا كراكِبٍ سارَ في يَوْمٍ صائِفٍ، فاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ساعَةً مِنْ نَهارٍ، ثُمَّ راحَ وَتَرَكَها»[2].

وفي حديث إيلاء[3] رسول الله ﷺ من أزواجه؛ ألا يدخل عليهن شهراً، ودخول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه، وقوله: وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ[4] حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظاً مَصْبوراً[5]، وعند رأسه أَهَبٌ[6] معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: «ما يُبْكيكَ؟» فقلت: يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هم فيه،

---

(١) أي: ألين وأوطأ.

(٢) أخرجه أحمد (١ / ٣٠١)، وابن حبان (٨ / ٩١ ـ إحسان)، والحاكم (٤ / ٣٠٩)، وقال: صحيح على شرط البخاري، وصححه الذهبي على شرط البخاري ومسلم. وأخرج الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩) عن الطيالسي الذي أخرجه (رقم ٢٧٧)، وأحمد (١ / ٣٩١ و٤٤١)، وغيرهم؛ عن عبد الله ـ أي: ابن مسعود ـ قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه عنه، وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ألا آذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه؟ فقال:

«مَا لِي وللدُّنْيا؟! ما أَنَا والدُّنْيا؟! إِنَّما أَنا والدُّنْيا كَراكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ راحَ وَتَرَكَهَا».
قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح، ووافقه الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (رقم ٤٣٨).

(٣) (الإيلاء): الحلف.

(٤) أي: جلد.

(٥) (القرظ): ورق السلم يدبغ به، و(مصبوراً): أي مجموعاً.

(٦) وفي رواية: «أَهَبَةٌ ثلاثة»، والمراد بها هنا: جلودٌ شُرِع في دبغها. انظر: «الفتح» (٩ / ٢٨٨).

وأنت رسول الله. فقال:

«أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيا وَلَنا الآخِرَةُ؟» وفي رواية: «أَوَفي شَكٍّ أَنْتَ يا ابْنَ الخَطَّابِ؟ أُولٰئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّباتُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا»(١).

فصل

ويُقَوِّي على الزهد في الدنيا: خوف الحساب والعقاب على ما أُخِذَ منها؛ لأن الخوف ـ كما تقدم ـ يخلع النفس من شهوات الدنيا، ويستنقذها من الغرق في بحر هواها.

وفي شأن السؤال عن نعيم الدنيا؛ قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ ما يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يومَ القِيامَةِ أَنْ يُقالَ لَهُ: أَلَمْ أُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وأُرْوِكَ مِنَ الماءِ البارِدِ؟»(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٦٥٧ ـ فتح)، وفي مواضع أخر؛ أولها (١ / ١٨٥ ـ فتح)، ومسلم (١٤٧٩)، وغيرهما. وفي رواية قال عمر: فابتدرت عيناي. قال: «مَا يُبْكِيكَ؟ يَا ابْنَ الخَطَّابِ!». قلت: يا نبي الله! وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهٰذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذٰلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصَفوته، وهٰذه خزانتك. فقال: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ! أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ، وَلَهُمُ الدُّنْيا؟». قلت: بلى.

(٢) التكاثر: ٨.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وابن حبان (٢٥٨٥ ـ موارد)، والحاكم (٤ / ١٣٨)، وهٰذا لفظه، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٦٧).

«لا تزولُ قَدَمُ ابْن آدَمَ يومَ القِيامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وماذا عَمِلَ فِيما عَلِمَ» (١).

وفي «المدهش» (٢): يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة! مَزِّق بيد الجد أثواب الفترة، وتأهب؛ فما تدري السير عشاء أو بكرة، واعتبر بالقرباء، فالعِبرة تبعث العَبرة، وتزود لسفرة ما مثلها سفرة، واقنع باليسير؛ فالحساب عسير على الذرة، وإياك والحرام، وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تَلقى ساعة حسرة، وتُلقى بعدها في ظلمة حفرة اهـ.

واعلم أنه بقدر ما يأخذ العبد من الدنيا الملعونة؛ ينقص من حظه في الآخرة، فمن استوفى شهواته في الدنيا؛ ليس له في الآخرة من نصيب؛ كما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (٤).

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٥).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) وغيره، وأودعه الألباني في «الصحيحة» برقم (٩٤٦).

(٢) (ص ٢٨٩).

(٣) الإسراء: ١٨.

(٤) الشورى: ٢٠.

(٥) الأحقاف: ٢٠.

وعن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف؛ أن عبد الرحمٰن بن عوف أُتِيَ بطعام، وكان صائماً، فقال: قُتِل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وهو خير مني، كُفِّن في بردة؛ إن غُطِّي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ـ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[١].

وعن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ دخل على حمزة، فتذاكرا الدنيا، فقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَها بِحَقِّها بُورِكَ لَهُ فِيها، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ في مالِ اللهِ ومالِ رسولِهِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا النَّارُ يَوْمَ يَلْقَى اللهَ»[٢].

وفي «لطائف المعارف»[٣]: قال بعض السلف: صم الدنيا، واجعل فطرك الموت.

الدنيا كلها شهر صيام المتقين، يصومون فيه عن الشهوات المحرمات، فإذا جاءهم الموت؛ فقد انقضى شهر صيامهم، واستهلوا عيد فطرهم.

وقَدْ صُمْتُ عَنْ لذَّاتِ دَهْرِيَ كُلِّها ... ويَوْمَ لِقاكُمْ ذاكَ فِطْرُ صِيامِي

من صام اليوم عن شهواته؛ أفطر عليها بعد مماته، ومن تَعَجَّل ما حُرِّم عليه قبل وفاته؛ عوقب بحرمانه في الآخرة وفواته اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١٤٢ ـ فتح).

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٢١٧ ـ فتح)، والترمذي (٢٣٧٤)، وأحمد (٦ / ٣٦٤ و٣٧٨ و٤١٠) واللفظ له، وغيرهم.

ولفظ البخاري: «إِنَّ رِجالاً يَتَخَوَّضُونَ في مالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ».

وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٩٢).

(٣) «لطائف المعارف» (ص ١٥٥).

فأخسر الناس من قضى عمره في الاشتغال بالدنيا؛ بائعاً بها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمثل هٰذا كمثل من يبيع الجوهر والدرر بالحجر والبعر، بل التمثيل بهٰذا تقصير، إذ الدنيا مهما طالت مدتها، ومهما عاش فيها العبد، فإنه سينتقل عنها، ثم هي ستفنى وتزول، فكيف تقاس بالجنة الدائمة أبد الآباد، الممتلئة بالأفراح والمسرات، السليمة من العيوب والآفات؟!

فصل

ومما يقوي على الزهد في الدنيا: علم العبد أن الموت قد يأتي فجأة، فيقطع عليه نعيم الدنيا، فيصبح كأن لم يكن.

وإن طال أمل العبد، وظن بُعْد الموت؛ فليعلم أن لذاته ستنقطع إن عاجلاً أو آجلاً، وستبقى تبعة الشهوات المحرمة في عنقه، أما لذتها المنغصة فقد زالت، ولم يبق منها شيء، فَحَرِيٌّ بالعاقل أن لا يتعلق من الدنيا بشيء؛ لأن فراقها صعب على محبها، ولا بد له منه.

وفي «المدهش»[1]: كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموت ساعة، ولا يتم له سرور يوم؟! إذا كان عمرك في إقبال، فما أسرع الملتقى.

وفيه[2]: ويحك! إن سرورها أقتل من السم، وإن شرورها أكثر من النمل، إنها في قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر، أَبَقِيَ عمر؟ يا أبرد من الثلج! يا من هو عن نجاته أنوم من فهد! ضيَّعت عمراً أنفس من الدر، أنت في الشر أجرى من

---

(١) (ص ٣١٣).

(٢) (ص ٢٦٠).

جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج.

وفيه[1]:

يا ساكِنَ الدُّنْيا تَأَهَّبْ وانْتَظِرْ يَوْمَ الفِراقْ
وأَعِدَّ زاداً لِلرَّحِيلِ فَسَوْفَ يُحْدَى بالرِّفَاقْ
وابْكِ الذُّنوبَ بِأَدْمُعٍ تَنْهَلُّ مِنْ سُحُبِ المَآقْ
يا مَنْ أَضَاعَ زَمَانَهُ أَرَضِيتَ ما يَفْنَى بِبَاقْ

وفي «لطائف المعارف»[2]: قال الحسن: إن الموت قد فضح الدنيا، فلم يدع لذي لب بها فرحاً.

وقال مُطَرِّف: إن هٰذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا نعيماً لا موت فيه.

وفي «اللطائف» أيضاً[3]: يا من يفرح بكثرة مرور السنين عليه، إنما تفرح بنقص عمرك.

قال أبو الدرداء والحسن رضي الله عنهما: إنما أنت أيام، كلما مضى منك يوم؛ مضى بعضك.

إِنَّا لَنَفْرَحُ بالأَيَّامِ نَقْطَعُها وكُلُّ يَوْمٍ مضى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْتِ مُجْتَهِداً فَإِنَّما الرِّبْحُ والخُسْرانُ في العَمَلِ

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟! كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته؟!

---

(١) (ص ٢٢٨).

(٢) (ص ٢٦).

(٣) (ص ٣١٧) باختصار.

وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

وهي مراحل:

نَسِيرُ إِلى الآجَالِ في كُلِّ لَحْظَةٍ ... وأَعْمَارُنا تُطْوى وهُنَّ مَراحِلُ

تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيا بِزادٍ مِنَ التُّقى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قلائِلُ

يا من كلما طال عمره زاد ذنبه! يا من كلما ابيض شعره بمرور الأيام اسود بالآثام قلبه!

وفيه[1]: قال بعض السلف: كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة.

وقال بعضهم: بقية عمر المؤمن لا قيمة له، يعني: أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة، وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح، فأما من فرط في بقية عمره، فإنه خاسر، فإن ازداد فيه من الذنوب، فذلك هو الخسران المبين.

وفيه[2]: يا أبناء العشرين! كم مات من أقرانكم وتخلفتم؟! يا أبناء الثلاثين! أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم. يا أبناء الأربعين! ذهب الصبا، وأنتم على اللهو قد عكفتم. يا أبناء الخمسين! تنصفتم المئة وما أنصفتم. يا أبناء الستين! أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم، أتلهون وتلعبون؟! لقد أسرفتم.

فصل

ويقوي على ترك الدنيا: عِلْمُ العبد أن اشتغاله بها؛ يُفَوِّت عليه حظه من الإقبال على الله تعالى وذكره، والأنس به، والتنعم بطاعته، والتلذذ بمعرفته

(١) (ص ٣١٥).

(٢) (ص ٣١٦).

ومحبته، فإن هٰذه جنة الدنيا، وبقدر نصيب العبد منها؛ يكون نصيبه من جنة الآخرة.

فحرام والله على العبد، أن يضيع هٰذا النعيم المعجل من أجل لذات منقطعة، بل هي منغصة حال وجودها، ولٰكن ماذا تفعل بنفس خسيسة دنية، ترضى بخسارة المعجل والمؤجل؟!

ومما يقوي على الزهد في الدنيا: تدبر الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة؛ التي ترغب في الزهد فيها، وتُرَهِّب من حبها، والتكاثر في جمعها، والتنافس في حظوظها، وقد تقدم شيءٌ من هٰذا.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه؛ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله! دلني على عمل، إذا أنا عملته أحبني الله، وأحبني الناس. فقال رسول الله ﷺ:

«ازهَدْ في الدُّنْيا؛ يُحِبُّكَ اللهُ، وازْهَدْ فيما في أَيْدي النَّاسِ؛ يُحِبُّوكَ»(١).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ كانَتِ الدُّنْيا هَمَّهُ؛ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ كانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ؛ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وَهِيَ راغِمَةٌ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٤ / ٣١٣)، وغيرهما، وصححه الألباني لغيره في «الصحيحة» (٢ / ٦٦٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٦٧١).

«إِنَّ اللهَ تعالى يقولُ: يا ابْنَ آدَمَ! تَفرَّغْ لِعِبادَتي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنىً، وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وإِنْ لا تَفْعَلْ مَلأتُ يَدَيْكَ شُغْلاً، ولَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[1].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقولُ رَبُّكُمْ تَبارَكَ وتعالى: يا ابْنَ آدَمَ! تَفرَّغْ لِعِبادَتي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنىً، وأَمْلأْ يَدَيْكَ رِزْقاً، يا ابْنَ آدَمَ! لا تَباعَدْ مِنِّي فَأَمْلأَ قَلْبَكَ فَقْراً، وأَمْلأَ يَدَيْكَ شُغْلاً»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الدُّنْيا كُلَّها قَليلاً، وما بَقِيَ مِنْها إِلاَّ القَليلُ مِنَ القَليلِ، ومَثَلُ ما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيا كَالثَّغْبِ (يعني: الغدير)، شُرِبَ صَفْوُهُ وبَقِيَ كَدَرُهُ»[3].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ ضُرِبَ للدُّنْيا مَثَلاً بِما خَرَجَ مِنِ ابْنِ آدَمَ، وإِنْ قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ؛ فانْظُرْ ما يَصيرُ إِليهِ»[4].

وقوله ﷺ: (قزحه)، قال ابن الأثير في «النهاية»: أي: تَوْبَلَه، من القِزْح،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجه (٤١٠٧) وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (١٣٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم (٤ / ٣٢٦)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٣٤٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٤ / ٣٢٠) وغيره، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٤ / ١٦٤).

(٤) أخرجه ابن حبان (٢ / ٤٣ ـ إحسان) وغيره، وحسنه الألباني لغيره في «الصحيحة» (١ / ٦٦٢).

وهو التابِل الذي يطرح في القدر، كالكمّون والكزبرة ونحو ذلك. يقال: قَزَحْتُ القِدْرَ؛ إذا تركْتَ فيها الأبازير[1].

والمعنى: أن المطعم وإن تكلف الإنسان التَّنَوُّقَ في صنعته وتطييبه؛ فإنه عائـد إلى حال يُكْرَهُ وَيُسْتَقْذَرُ، فكذٰلِك الدنيا المحروص على عِمارتها ونظمِ أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار.

وقـال ابن القيم[2]: شهـوات الـدنيا في القلب؛ كشهوات الأطعمة في المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبـح؛ ما يجـده للأطعمـة اللذيذة إذا انتهت في المعـدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً، وأكثر دسماً، وأكثر حلاوة؛ كان رجيعها أقذر، فكذٰلك كل شهوة[3] كانت في النفس ألذ وأقوى؛ فالتأذي بها عند الموت أشد اهـ.

وفي «المـدهش»[4]: يا مستـأنساً بظل متقلص! يا حريصاً على الهوى والموت عليه يحرص! يا من إذا كال فمطفف، وإن وزن فمتلصلص! ما تتخلص من معـامـل وهو عند الله متخلص، تفكر فيمن أصبح مسروراً، فأمسى وهو مُتَنَغِّص، ومتى ازددت لذة؛ فاذكر قبلها المنغص، حاسب نفسك، وخذ على يديها، لا ترخص، حائط الباطن خراب، فلماذا تجصص؟

وفيه[5]: يا مخدوعاً قد فتن! يا مغروراً قد غبن! من لك إذا سُوِّيَ عليك اللبن؟ في بيت قط ما سكن، سَلْبُ الرفيق نذير، والعاقل فطن.

---

(١) (الأبازير): جمع الجمع لبزر؛ وهو التابل، والجمع أبزار.

(٢) «عدة الصابرين» (ص ١٩٩).

(٣) يعني: الشهوة المحرمة.

(٤) (ص ٥١٨).

(٥) (ص ٢٤٠).

فصل

ومن أعظم ما يعين على الزهد في الدنيا: معرفة ما مثلها الله تعالى به، وما مثلها به رسوله ﷺ، وقد جمعت ذلك في كتابي: «مثل الحياة الدنيا»، وأضفت إليه أمثالاً من كلام العلماء والحكماء، حتى ربا ما ذكرته على الستين مثالاً، والحمد لله وحده.

وقد تقدم في هذا الكتاب ذكر بعض هذه الأمثال(١)؛ وهذه عشرة أمثال من كلام العلماء مقتطفة من كتابي المذكور:

الأول: مثل الدنيا مثل سحابة عن قليل تَقَشَّع.

روي أن سفيان الثوري كان يتمثل(٢):

أَرى أَشْقِياءَ النَّـاسِ لا يَسْأَمُونَها ... على أَنَّهُـمْ فيهـا عُراةٌ وجُـوَّعُ
أَراهـا وإِنْ كانَـتْ قَليلاً كَأَنَّـهـا ... سَحـابَـةُ صَيْفٍ عَنْ قَليلٍ تَقَشَّـعُ
كَرَكْبٍ قَضَـوْا حاجـاتِهِمْ وتَـرَحَّلُوا ... طَريقُهُـمْ بادي العَـلامَـةِ مَهْيَعُ(٣)

وفي «المدهش»(٤): إخواني! اعتبروا بالذين قطنوا وخزنوا، كيف ظعنوا وحزنوا؟! وانظروا إلى آثارهم تعلموا أنهم قد غُبِنوا، لاحت لهم لذات الدنيا فاغتروا وفتنوا، فما انقشعت سحاب المنى حتى ماتوا ودفنوا.

جَمَعُوا فما أَكَلُوا الَّذي جَمَعُوا ... وَبَنَـوا مَسـاكِنَهُمْ فَمـا سَكَنُـوا
فَكَـأَنَّهُمْ كَانُـوا بِهـا ظُعُنـاً ... لَمَّـا اسْتَـراحُـوا سَاعَـةً ظَعَنُوا

---

(١) ومنها مثال «الثغب» و«مطعم ابن آدم» المتقدمان قريباً.

(٢) «ذم الدنيا» (رقم ١٩٠ و٢٤٠).

(٣) (طريق مَهْيَع): واضح واسع بيّن، وجمعه مَهايع. «لسان العرب».

(٤) (ص ٢٩٢).

الثاني : مثلها مثل حية ناعمة الملمس ، حسنة اللون ، وضربتها الموت .

قال بعضهم : اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة ، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها ، وهيهات! فإن الخوض في الدنيا سهل ، والخروج منها مع السلامة شديد .

وقال الحسن في كتابه لعمر بن عبد العزيز(١) : احذرها الحذر كله ؛ فإنها مثل الحية ، لين مسها ، وسمها يقتل ، فأعرض عما يعجبك فيها ؛ لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها ؛ لما عاينت من فجائعها ، وأيقنت به من فراقها .

الثالث : مثال الدنيا كصياد ينصب حبائله للطير ، ويعد الفخوخ لها ، وينثر حولها الحب يصيدها ، فتأتي الطير ، فمنها من يقنع بالقليل ويطير ، ومنها من يطمع فيقع في الشرك .

قال ابن القيم(٢) : مثال الدنيا ؛ مثال حب قد نثر على وجه الأرض ، وجعلت كل حبة في فخ ، وجعل حول ذلك الحب حب ليس في فخاخ ، فجاءت الطير ، فمنها من قنع بالجوانب ، ولم يرم نفسه في وسط الحب ، فأخذ حاجته ومضى ، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب ، ووسط الحب ، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذة الفخ له .

وفي «الفوائد»(٣) له : حبة المشتهى تحت فخ التلف ، فتفكر الذبح ، وقد هان الصبر .

---

(١) «المدهش» (ص ٣٠٨) .

(٢) «العدة» (ص ٢٠٦) .

(٣) (ص ٦٦) .

وفي «المدهش»(1): يا مغرورين بحبة الفخ! ناسين خنق الشَّرَك، تذكروا فوات الملتقط مع حصول الذبح، ﴿فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

الحذر الحذر من صياد يسبق الطير إلى مهابطه بفخاخ مختلفة الحيل، قدروا أنكم لا ترون خيط فخه، أما تشاهدون ذبائحه؟

ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة؟! وإنما هي ساعة، ويصل إلى برج أمنه، وفيه حبات.

فَإِنْ حَنَنْتَ للحِمَى وَطِيبِهِ ... فَبِالغَضَى ماءٌ وروضاتٌ أُخَرْ

الرابع: جعلوا الموت في الدنيا كالرحى، وأهل الدنيا الحب؛ فهي تطحنهم برحاها؛ كما قال أبو العتاهية(2):

كَمْ شَهْوَةٍ بفسادِ دِيـ ... نِكَ قَدْ رَأَيْتُكَ تَشْتَهِيها
يَا بَائِعَ الدُّنْيا بِهَا ... طَوْراً وَطَوْراً يَشْتَرِيها
أَمَّا رَحَى الدُّنْيا فَدا ... ئِرَةٌ تَدُورُ على بَنِيها
ولَعَلَّ لاحِظَ لَحْظَةٍ ... سَيَموتُ في أُخْرَى تَلِيها
لا خَيْرَ في الدُّنْيا لِمُغْـ ... ـتَرٍّ بِها لا يَتَّقِيها

وقال(3):

النَّاسُ في غَفَلاتِهِمْ ... وَالمَوْتُ دائِرَةٌ رَحَاهُ

وقال(4):

---

(1) (ص ٤٧٤).

(2) «ديوانه» (ص ٢٩١).

(3) «ديوانه» (ص ٢٨٥).

(4) «ديوانه» (ص ٢٦٧).

وَالنَّـاسُ فِي غَفَـلاتِـهِـمْ ... وَرَحَـى الـمَـنِـيَّةِ تَطْحَـنُ
مَا دُونَ دائِـرَةِ الـرَّدى ... حِصْـنٌ لِمَـنْ يَتَـحَـصَّـنُ

قال ابن كثير في «تفسيره»[1]: روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن ابن هانىء أبي نواس الشاعر؛ أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية؛ حيث يقول:

الـنَّـاسُ في غَفَـلاتِـهِـمْ ... وَرَحَـى الـمَـنِـيَّةِ تَطْحَـنُ

فقيل له: من أين أخذ هٰذا؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ**﴾[2].

الخامس: قال ابن القيم[3]: أشبه الأشياء بالدنيا عجوز شوهاء، قبيحة المنظر والمخبر، غدّارة بالأزواج، تزينت للخطاب بكل زينة، وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة، فإننا ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخطاب العاجلة، وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح. فلما كشف قناعها، وحل إزارها؛ إذا كل آفة وبلية، فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من اختار المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

بالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق؛ بحي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمصلون لها، فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم، فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها، فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها، فأسلمتهم للذباح.

---

(١) (٣ / ١٧٢).

(٢) الأنبياء: ١.

(٣) «عدة الصابرين» (ص ١٩٥ - ١٩٦).

وعن أبي العلاء؛ قال[1]: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة، متغضنة الجلد[2]، ينظرون إليها، فجئت فنظرت، فعجبت من نظرهم إليها، وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أوما تعرفني؟ قلت: لا، ما أدري ما أنت. قالت: فإني أنا الدنيا. قال: قلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شري؛ فأبغض الدرهم.

وعن سفيان بن عيينة؛ قال[3]: قال لي أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا - يعني: في النوم - عجوزاً مشوهة حدباء.

قلت: ورأيتها امرأة غاية في الجمال، مكتنزة اللحم، مزينة بأحسن الحلي واللباس، ووقع في قلبي أن لا تلتفت إليها، وغضّ بصرك عنها، ولا تغتر بها؛ فإن وراء هٰذا الجمال عيوباً.

ثم كشفت لي عن ساعدها؛ فإذا جلدها غضنة واحدة، كثير التثني والثقوب، غاية في البشاعة، أشبه شيء بجلد فيل دَبّ فيه الجرب.

فقلت: لعلكِ الدّ...

فقالت: أنا الدنيا؛ فاحذرني يا محمد! احذرني يا محمد!

وظهر لي من قبح وجهها بعد جماله؛ ما لا يعبر عنه بلسان؛ فنفرت نفسي، واشمأز قلبي.

وفي «المدهش»[4]: اسمع يا من أجاب عجوزاً على مزبلة، ويحك إنها

---

(١) «ذم الدنيا» (رقم ٢٨).

(٢) (الغَضْن والغَضَن): الكسر في الجلد والثوب والدرع وغيرها، وكل تَثَنٍّ في ثوب أو جلد غَضْن وغَضَن. «لسان».

(٣) «ذم الدنيا» (رقم ٢٩).

(٤) (ص ٢٩٠).

سوداء، ولكن قد غلبت عليك.

السادس: ومثلوا الدنيا بالأم، وأهلها بالأبناء:

قال البخاري[1]: قال علي بن أبي طالب: ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

وقال ابن أبي الدنيا[2]: أنشدني أبو عبد الله قوله:

رُوَيْداً بَنِي الدُّنْيا أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ ... إِلَى أَجَلٍ تَسْعَى إِلَيْهِ مَقَادِرُهْ
أَراها إِذا رَبَّتْ لها ابْناً ولَمْ تَدَعْ ... لَهُ أَرَباً دَسَّتْ لَهُ ما يُحاذِرُهْ
فَكُنْ عِنْدَ صَفْوِ الدَّهْرِ للدَّهْرِ حاذِراً ... فَلا صَفْوَ إِلَّا سَوْفَ يَكْدَرُ آخِرُهْ

وفي «المدهش»[3]: يا أبناء الدنيا! إنها مذمومة في كل شريعة، والولد عند الفقهاء يتبع الأم.

وفيه[4]: كم غرّت الدنيا فرخها؟ فعرت، ثم ذبحته بمُدْيَة ما مرت، إنها لتقتل صيادها، وتقتل أولادها.

وفيه[5]: يا طفلاً في حجر العادة، محصوراً بقماط الهوى! ما لك ومزاحمة الرجال؟ تمسكت بالدنيا تمسك المرضع بالظئر، والقوم ما أعاروها الطرف، ما لك والمحبة، وأنت أسير حبة؟! كم بينك وبينهم؟! وهل تدري أين هم؟!

---

(١) (١١ / ٢٣٥ - فتح).

(٢) «ذم الدنيا» (رقم ٤٩٤).

(٣) (ص ٢٦٠).

(٤) (ص ٢٦٢).

(٥) (ص ٣٠٢).

وفيه[1]: الدنيا تعطي تفاريق، وتسترجع جملاً، وترضع أفاويق، وتقطع عجلاً، يواتي خيرها وإن واتى لمعاً، ثم يأتي شرها حين يأتي دفعاً، فترى العبرات عند فقدها تراق ولا ترقا.

وفي «لطائف المعارف»[2]: يا شبان التوبة! لا ترجعوا إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفطام، فالرضاع إنما يصلح للأطفال لا للرجال، ولكن لا بد من الصبر على مرارة الفطام، فإن صبرتهم تعوضتم عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان في القلوب.

السابع: قال ابن القيم[3]: الدنيا جيفة، والأسد لا يقع على الجيف.

وقال[4]: سبحان الله! تزينت الجنة للخطاب، فجدوا في تحصيل المهر، وتعرَّف رب العزة إلى المحبين بأسمائه وصفاته، فعملوا على اللقاء، وأنت مشغول بالجيف.

لا كان مَنْ لِسِواكَ مِنْهُ قَلْبُهُ ... وَلَكَ اللِّسانُ مَعَ الوِدادِ الكاذِبِ

ولأبي العتاهية[5]:

إنَّما الدُّنْيا على ما جُبِلَتْ ... جِيفَةٌ نَحْنُ عليها نَصْطَرِعْ
التَّقِيُّ البَرُّ مَنْ يَنْبِزُها ... والمُحامِي دونَها الغِرُّ الخَدِعْ

وما أحسن ما قاله بعض السلف[6]:

---

(١) (ص ٣٢٢).

(٢) (ص ٢٣٩).

(٣) «الفوائد» (ص ٦٨).

(٤) «الفوائد» (ص ٨٩).

(٥) «ديوانه» (ص ١٥٣).

(٦) «جامع العلوم والحكم» (٢ / ٢٠٦).

وما هِيَ إلَّا جيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْها كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذابُها
فَإنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْماً لأهْلِها وَإنْ تَجْتَذِبْها نازَعَتْكَ كِلابُها

الثامن: عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر؛ قال: كان مسروق يركب كل جمعة بغلة، ويحملني خلفه، ثم يأتي كناسة في الحيرة قديمة، فيحمل عليها بغلته، ثم يقول: الدنيا تحتنا[1].

التاسع: ومثلوا الدنيا بلجة البحر، والعمل الصالح فيها سفينة النجاة.

قال ابن القيم[2]: مثلها مثل البحر الذي لا بدّ للخلق كلهم من ركوبه؛ ليقطعوا إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم، ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة، فأرسل الله رسله لِتُعَرِّف الأمم اتخاذ سفن النجاة، وتأمرهم بعملها وركوبها، وهي طاعته، وطاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له، والتشمير للآخرة وإرادتها، والسعي لها سعيها، فنهض الموفقون، وركبوا السفينة، ورغبوا عن خوض البحر؛ لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحة، وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها، وقالوا: نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة، وهم أهل الدنيا، فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق، ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض.

فتأمل هٰذا المثال، وحال أهل الدنيا فيها، يتبين لك مطابقته للواقع، وقد ضرب هٰذا المثال للدنيا والآخرة، والقدر والأمر؛ فإن القدر بحر، والأمر فيه سفينة، لا ينجو إلا من ركبها.

---

(١) «ذم الدنيا» (رقم ٩٥)، و«حلية الأولياء» (٢ / ٩٦).

(٢) «العدة» (ص ٢٠٦).

ولأبي العتاهية(١):

كُلُّ أَهْلِ الدُّنْيا تَعُومُ على الغَفْـ ـلَةِ مِنْها في غَمْرِ بَحْرٍ عَميقْ
يَتَبارَوْنَ فِي السِّباحِ فَهُمْ مِنْ بَيْنِ ناجٍ مِنْهُمُ وَغَرِيقْ

وله(٢):

يا مَنْ بَنَى القَصْرَ فِي الدُّنْيا وشَيَّدَهُ أَسَّسْتَ قَصْرَكَ حَيْثُ السَّيْلُ والغَرَقُ
لا تَغْفُلَنَّ فَإِنَّ الدَّارَ فانِيَةٌ وشُرْبُها غُصَصٌ أَوْ صَفْوُها رَنَقُ(٣)
والمَوْتُ حَوْضٌ كَرِيهٌ أَنْتَ وارِدُهُ فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْتِ يا مَذِقُ(٤)

ولغيره:

إِنَّ للهِ عِباداً فُطَنا طَلَّقُوا الدُّنْيا وخافُوا الفِتَنا
نَظَروا فيها فَلَمَّا عَلِموا أَنَّها لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنا
جَعَلُوها لُجَّةً واتَّخَذوا صالِحَ الأعْمالِ فيها سُفُنا

العاشر: قال ابن القيم(٥): مثلت الدنيا بمزرعة، والعمل فيها بالبذر، والحصاد يوم المعاد.

وقال الشاعر:

غداً تُوَفَّى النُّفوسُ ما كَسَبَتْ وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ ما زَرَعُوا
إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لأَنْفُسِهِمْ وإِنْ أَساؤوا فَبِئْسَ ما صَنَعُوا

---

(١) «ديوانه» (ص ١٧١).

(٢) «ديوانه» (ص ١٧٢).

(٣) أي: كدر.

(٤) (رجل مَذِق ومذّاق ومُمَاذِق)؛ أي: ملول. وفي «مختار الصحاح»: (مَذَقَ الودَّ)؛ أي: لم يخلصه، فهو (مَذّاق ومُمَاذق)؛ أي: غير مُخْلِص.

(٥) «العدة» (ص ٢١٦).

وفي «التبصرة»[1]: إخواني! الدنيا في إدبار، وأهلها فيها في استكثار، والزارع فيها غير التقى لا يحصد إلا الندم.

وفيها[2]: أيها الشاب! تدبَّر أمرك، فإنك في زمن الربح، ووقت البَذْر، وإبّان الفضائل، واحذر أن يخدعك العدوُّ عن نفيس هٰذا الجوهر، فتنفقه بكفِّ التبذير، تالله! لئن فعلت لتغرسن بذٰلك شجرة الندامة، فيتساقط عليك من كل فَنَن منها فنُّ حسرة، واعرف قَدْر ما تؤمِّن به هٰذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدوّ له، وصابِرْ، فكأنْ قد انقضى الموسم.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ذاكراً بعض أمثال الدنيا:

لٰكِنَّ ذا الإيمانِ يَعْلَمُ أَنَّ هٰـ ... ـذا كالظِّلالِ وكُلُّ هٰذا فانِ
كَخَيالِ طَيْفٍ ما اسْتَتَمَّ زيارةً ... إلَّا وَصُبْحُ رَحيلِهِ بأذانِ
وسَحابَةٍ طَلَعَتْ بيَوْمٍ صائِفٍ ... فالظِّلُّ مَنْسُوخٌ بقُرْبِ زمانِ
وكَزَهْرَةٍ وافى الرَّبيعُ بحُسْنِها ... أَوْ لامِعاً فكِلاهُما أَخَوانِ
أَوْ كالسَّرابِ يَلُوحُ للظَّمْآنِ في ... وَسْطِ الهَجيرِ بمُسْتَوى القِيعانِ
أَوْ كالأماني طابَ مِنْها ذِكْرُها ... بالقَوْلِ واسْتِحْضارُها بجَنانِ
وهِيَ الغُرُورُ رُؤوسُ أَمْوالِ المَفا ... لِيسِ الأُلى اتَّجَروا بلا أَثْمانِ
أَوْ كالطَّعامِ يَلَذُّ عِنْدَ مَساغِهِ ... لٰكِنَّ عُقْباهُ كَما تَجِدانِ
هٰذا هُوَ المَثَلُ الَّذي ضَرَبَ الرَّسُو ... لُ لَها وَذا في غايَةِ التِّبْيانِ
وإذا أَرَدْتَ تَرى حَقِيقَتَها فَخُذْ ... مِنْهُ مِثالاً واحِداً ذا شانِ
أَدْخِلْ بِجَهْدِكَ إِصْبَعاً في اليَمِّ وانْـ ... ـظُرْ ما تَعَلَّقُهُ إذاً بعِيانِ
هٰذا هُوَ الدُّنْيا كذا قالَ الرَّسُو ... لُ مُمَثِّلاً والحَقُّ ذو تِبْيانِ

---

(١) (٢ / ٩).

(٢) (٢ / ١٧٩).

العائق الرابع: الخلق

فإنهم يشغلون العبد عن طاعة الله تعالى، ويصدونه عنها، ويقعدونه عن فعل الخيرات، ويلهونه عن التفكر في آخرته، ويشغلونه بالدنيا وزينتها، ويرغبونه فيها، ويثبطونه عن مصالحه، وما فيه فلاحه في الدنيا والآخرة، فهم أعوان نفسه وشيطانه عليه، وهٰذا حال أكثر الخلق؛ فإنهم لا يريدون للعبد الخير، وذٰلك لأسباب:

منها: الحسد الذي في أنفسهم.

ومنها: رغبة في مشاركته إياهم في شرهم، فيكون مثلهم؛ عاصياً في الدنيا، خاسراً في الدنيا والآخرة.

ومنها: رغبتهم في أن ينالوا من العبد مرادهم؛ من أمور لا ينالونها منه لو كان تقياً.

ولست أعني بكلامي هٰذا كل الخلق، بل أعني به أهل البدع، وأهل الفسوق والعصيان، وأهل البطالة والكسل، وأهل إضاعة الأوقات.

وأما المؤمنون؛ أهل العلم الصحيح، والعمل الصالح، المتقون الله تعالى، فلله درهم، وعليه أجرهم، ونعم الصحبة هم، فهم عون للعبد على طاعة مولاه، فليأخذ منهم بغيته، وليلزم طريقهم، وليتمسك بهم، فهم القوم لا يشقى جليسهم، ولا يخيب رفيقهم، ولا يضل من اتبع طريقهم.

فهٰؤلاء لا يؤمر العبد باعتزالهم، بل في اعتزالهم هلاك العبد في الدنيا قبل الآخرة.

واعتزال الخلق مطلقاً، والسياحة في البراري، وترك الجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وتشييع الجنازات، وسائر الطاعات، التي لا يتمكن العبد من فعلها إلا بمخالطة الناس؛ لم يأمر به نقل ولا عقل، إنما هو طريق أهل البدع، وأصحاب الخلوة الفاسدة، دلَّهم عليها الشيطان؛ ليوقعهم في شَرَكه، ويصدهم عن الحق بوحيه، وحاله معهم؛ كحال الذئب مع الغنم القاصية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن الجوري[1]: ينبغي أن تكون العزلة عن الشر، لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين؛ فإنه عبادة العالم.

وإن من الخطأ الذي وقع فيه بعض العلماء؛ إيثاره التنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذٰلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه[2].

وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذٰلك لمعنيين:

أحدهما: حب البطالة؛ لأن الانقطاع عندها أسهل.

والثاني: لحب المدحة؛ فإنها إذا توسَّمت بالزهد، كان ميل العوام إليها أكثر.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٤٢).

(٢) وإن من الخطأ ـ أيضاً ـ الاقتصار على التعليم والتأليف، دون العمل بما يمليه العلم مما كان عليه السلف الصالح؛ من قيام وصيام وكثرة ذكر لله عز وجل، وغير ذٰلك من دَيْدَنِ عمّال الآخرة.

فعليك بالنظر في السرب الأول، فكن مع السرب المقدم، وهم الرسول ﷺ وأصحابه، رضي الله تعالى عنهم.

فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة؛ من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخلق؟

وهل كان شغل الأنبياء إلا مُعاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر؟ اهـ.

وقال: لا ريب أن القلب المؤمن بالإِلٰه سبحانه وبأوامره؛ يحتاج إلى الانعكاف على ذكره وطاعته وامتثال أوامره، وهٰذا يفتقر إلى جمع الهمّ.

وكفى بما وضع في الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتاً للهم المجتمع.

فينبغي للإنسان أن يجتهد في جمع همه؛ لينفرد قلبه بذكر الله سبحانه وتعالى، وإنفاذ أوامره، والتهيؤ للقائه.

وذٰلك إنما يحصل بقطع القواطع، والامتناع عن الشواغل، وما يمكن قطع القواطع جملة، فينبغي أن يقطع ما يمكن منها.

وما رأيت مشتتاً للهم، مبدداً للقلب مثل شيئين:

أحدهما: أن تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهيه، وذٰلك لا يوقف على حد فيه، فيذهب الدين والدنيا، ولا ينال كل المراد.

مثل أن تكون الهمة في المستحسنات، أو في جمع المال، أو في طلب الرياسة، وما يشبه هٰذه الأشياء، فيا له من شتات لا جامع له! يذهب العمر ولا ينال بعض المراد منه.

والثاني: مخالطة الناس؛ خصوصاً العوام، والمشي في الأسواق، فإن

الـطبـع يتقـاضى بالشهـوات، وينسى الرحيل عن الدنيا، ويحب الكسل عن الطاعة، والبطالة والغفلة والراحة.

فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو العبادة، ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغِيبة، وتضيع الساعات في غير شيء.

فمن أراد اجتمـاع همـه؛ فعليه بالعزلة، بحيث لا يسمع صوت أحد، فحينئذٍ يخلو القلب بمعارفه، ولا تجد النفس رفيقاً مثل الهوى يذكرها ما تشتهي.

فإذا اضطر إلى المخالطة كان على وفاق؛ كما تتهوّى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء، فهٰذه طريق السلامة، فتأمل فوائدها؛ تَطِبْ لك.

فصل

وفي شأن فضول مخالطة الخلق قال ابن القيم رحمه الله تعالى(١):

هي الداء العضـال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة؟ وكم زرعت من عداوة؟ وكم غرست في القلب من حزازات؟ تزول الجبـال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر، ولم يميز بينهما؛ دخل عليه الشر:

أحدها: مَن مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ

---

(١) «البدائع» (٢ / ٢٧٣ ـ ٢٧٥) بحذف يسير.

حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه؛ هٰكذا على الدوام، وهٰذا الضَرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره، ومكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهٰذا الضرب في مخالطتهم الربح؛ كل الربح.

القسم الثاني: مَن مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يُستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هٰذا الضرب؛ بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء، على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال، والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذٰلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا، أو أحدهما، فهٰذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت، فهي مرض الموت المخوِّف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس؛ يشتد ضربه عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حُمّى الرُّوح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم؛ فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت؛ فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه؛ فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم؛ فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه، وفرحه به، فهو يُحْدِثُ من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مِسك يطيب به المجلس، وإن سكت؛ فأثقل من نصف الرحا

العظيمة؛ التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

وبالجملة؛ فمخالطة كل مخالف حمى للروح؛ فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هٰذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف؛ حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق؛ وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هٰذا الضرب في الناس - لا كَثَّرهم الله -، وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً؛ فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

إن جردت التوحيد بينهم؛ قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جرّدْت المتابعة لرسول الله ﷺ؛ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله؛ من غير غلوّ ولا تقصير؛ قالوا: أنت من المشبِّهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر؛ قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة، وتركت ما خالفها؛ قالوا: أنت من أهل البدع المُضِلِّين.

وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا؛ قالوا: أنت من المُلَبِّسين.

وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم؛ فأنت عند الله من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم: التماسُ مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم، ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم، ولا بغضهم، فإنه عين كمالك؛ كما قال [الشاعر]:

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ ناقِصٍ فَهِيَ الشَّهادَةُ لِي بِأَنِّي فَاضِلُ

فصل

وفي مخالطة الخلق آفات كثيرة غير التي ذكرنا، يصعب حصرها:

منها: الغيبة والنميمة والكذب والسب والإيذاء.

ومنها: ضياع الوقت؛ الذي هو أثمن ما في الحياة؛ كما بينا.

ومن أخطر آفات المخالطة؛ ما يقع فيه العبد من النظر إلى المحرمات، فالنظرة تؤدي إلى الاستحسان، والاستحسان يؤدي إلى تكرار النظر، فيتولد غالباً العشق، وهو من أعظم ما يشغل العبد عن مصالح دينه ودنياه، ويسد في وجهه أبواب الهداية، ويقطع عنه مواد التوفيق، فأي خِذْلان أعظم من أن يستعبد قلب العبد صورة محرمة، ينصرف من أجلها عن الله تعالى والدار الآخرة، نعوذ بالله تعالى من هٰذه الحال.

فيجب على العاقل الذي نصح نفسه، وأراد سعادتها؛ أن يسعى بكل حيلة للخلاص من هٰذا الداء العضال، المهلك للقلب أشد الهلاك، المفسد للدين والدنيا، وعليه أن يستعمل الأدوية الشرعية؛ التي وصفها له أهل العلم بهٰذا الشأن.

ومن أعظم آفات المخالطة: التصنع للمخلوق، والمراءاة له، فيتعب العبد نفسه بعبادات لا ينال عليها أجراً، بل يأثم بها، وهٰذا من أعجب خلائق البشر (أعني: ترك العبد العمل لله تعالى وكسله عنه، ثم يعمله لنظر المخلوق،

وينشط فيه).

وفي «صيد الخاطر»[1]: يا للعزلة ما ألذها! سلمت من كَدَرِ غِيبة، وآفاتِ تَصَنُّع، وأحوالِ المداجاة[2]، وتضييع الوقت، ثم خلا فيها القلب بالفكر، بعدما كان مشغولاً عنه بالمخالطة، فدَبّر أمر دنياه وآخرته، فمثله كمثل الحِمْية؛ يخلو فيها المعِيُّ بالأخلاط فيذيبها.

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط؛ لأنه يرى حالته الحاضرة، من لقاء الناس وكلامهم، فيشتغل بها عما بين يديه، فمثله كمثل رجل يريد سفراً قد أزف، فجالس أقواماً، فشغلوه بالحديث حتى ضُرِبَ البوق وما تزود.

فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل، والسلامة من شر المخالطة؛ لكفى اهـ.

(تنبيه): اعلم أنه لا يلزم ترك مخالطة كل الناس للخلاص من الآفات التي أشرنا إلى بعضها، بل المطلوب الحذر منها أثناء المخالطة، وأن لا يخالط الناس إلا في طاعة وخير، وإن كان لا بد؛ ففي مباح، ولا يكثر من ذلك خشية الوقوع في المحظور، وليحذر العبد خطوات الشيطان، وتزيينه سَيِّىءَ الأعمال.

* * * * *

(١) (ص ٢٦٣ - ٢٦٤).

(٢) (المداجاة): إخفاء العداوة وعدم إبدائها.

فصل
مختصر في التحذير من الرياء

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«قالَ اللهُ تبارَكَ وَتَعالى: أنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

قال النووي(٢): والمراد؛ أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَشِّرْ هٰذهِ الأُمَّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعَةِ والنُّصْرَةِ والتَّمْكِينِ في الأَرْضِ، ومَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيا؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ»(٣).

وحدث عبدُ الله بن عَمرو عبدَ الله بن عُمَر رضي الله عنهم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ؛ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) وغيره.

(٢) «شرح مسلم» (١٨ / ١١٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٥٠١ - موارد)، والحاكم (٤ / ٣١١)، وأحمد (٥ / ١٣٤)، وغيرهم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. والحديث في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٢٨٢٢).

قال: فذرفت عينا عبد الله بن عمر(١).

وفي «الصحيحين»(٢) عن جُنْدَب بن عبد الله البجلي ثم العلقي رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«مَنْ يُسَمِّعْ؛ يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ، ومَنْ يُراءِ؛ يُراءِ اللهُ بِهِ».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيحَ الدجال، فقال:

«ألا أُخْبِرُكُمْ بِما هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُم عِنْدي مِنَ المَسِيحِ الدَّجّالِ؟». فقلنا: بلى يا رسول الله! فقال:

«الشِّرْكُ الخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ، فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِما يَرى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»(٣).

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ». قالوا: وما الشرك الأصغر

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ١٦٢ و١٩٥ و٢١٢ و٢٢٣) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٢٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر (رقم ٦٥٠٩ و٦٨٣٩ و٦٩٨٦ و٧٠٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» (١١ / ٣٣٦ و١٣ / ١٢٨ - فتح)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٧).
وأخرجه مسلم (٢٩٨٦) وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ».

قال النووي: قال العلماء: معناه من رايا بعمله وسمّعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره؛ سمّع الله به يوم القيامة الناس وفضحه.

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ٦٥): معناه من أظهر عمله للناس رياءً؛ أظهر الله نيته الفاسدة في عمله يوم القيامة، وفضحه على رؤوس الأشهاد.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) بإسناد حسنه الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٣٣٣).

يا رسول الله؟ قال: «الرِّياءُ، يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ إذا جَزى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إلى الَّذينَ كُنْتُمْ تُراؤونَ في الدُّنْيا، فَانْظُروا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُم جَزاءً»[1].

وحَدَّثَ شُفَيٌّ الأصبحي؛ أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع الناس عليه، فقال: من هٰذا؟ قالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه، حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشدك الله بحق وحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلمته. فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقلته وعلمته. ثم نشغ[2] أبو هريرة نشغة، فمكث قليلاً، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا وهو في هٰذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، فمكث بذٰلك، ثم أفاق، ومسح وجهه، فقال: أفعل، لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا وهو في هٰذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خاراً على وجهه، وأسندته طويلاً، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ؛ نَزَلَ إلى العبادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وكُلُّ أُمَّةٍ جاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرآنَ، ورَجُلٌ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ، ورَجُلٌ كَثيرُ المالِ، فَيَقُولُ اللهُ للقارِىءِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنْزَلْتُ على رَسُولي؟ قال: بلى يا رَبِّ! قالَ: فَماذا عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ؟ قالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وَآناءَ النَّهار. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ المَلائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٤٢٨ و٤٢٩) وغيره؛ وجوّد إسناده المنذري في «الترغيب» (١ / ٦٨)، والألباني في «الصحيحة» (٢ / ٦٧٤).

(٢) (النَّشْغ) في الأصل: الشَّهيق حتى يكاد يَبْلُغ الغَشْي. «نهاية».

فلانٌ قارئٌ، فَقَدْ قِيلَ. وَيُؤتى بصاحِبِ المالِ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلى أَحَدٍ؟ قالَ: بَلى. قالَ: فَماذا عَمِلْتَ فِيما آتَيْتُكَ؟ قال: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ. وَتَقولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ: فُلانٌ جوادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ. وَيُؤتى بِالرَّجُلِ الَّذي قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ، فيُقالُ لَهُ: فِيمَ قُتِلْتَ؟ فيقولُ: أُمِرْتُ بالجِهادِ في سَبيلِكَ، فَقاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فيقولُ اللهُ: كَذَبْتَ. وَتَقولُ المَلائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَيَقولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ: فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ». ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ركبتي، فقال: «يا أَبا هُرَيْرَةَ! أُولٰئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم؛ فقال:

«يا أَيُّها النَّاسُ! اتَّقوا هٰذا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نَتَّقيه وهو أخفى من دبيب النملِ يا رسول الله! قال:

«قُولوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِما لا نَعْلَمُهُ»(٢).

*****

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (١ / ٤١٨) بحرفه، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه مسلم (١٩٠٥) وغيره؛ بنحوه مختصراً.

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ٤٠٣) وغيره، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (رقم ٣٣).

فصل
في الترغيب في مصاحبة الصالحين
ومجانبة قرناء السوء

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالحِ والجَلِيسِ السُّوءِ؛ كَمَثَلِ صاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ مِنْ صاحِبِ المِسْكِ؛ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وكِيرُ الحَدَّادِ يَحْرِقُ بَيْتَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً»(١).

قال النووي(٢): فيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر، وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجره وبطالته ونحو ذٰلك من الأنواع المذمومة.

وفي «فيض القدير»(٣): قال الراغب: نبه بهٰذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم، فهي قد تجعل الشرِّير خيِّراً، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريراً، ومن المشاهد؛ أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٣٢٣ و٩ / ٦٦٠ - فتح)، ومسلم (٢٦٢٨)، وغيرهما.

(٢) «شرح مسلم» (١٦ / ١٧٨).

(٣) (٥ / ٥٠٧).

الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية؛ التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبى ﷺ قال:
«المَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ»(١).

قال المباركفوري(٢): (على دين خليله)؛ أي: على عادة صاحبه، وطريقته وسيرته. (فلينظر)؛ أي: فليتأمل وليتدبر (من يخالل): من المخالّة، وهي المصادقة والإخاء، فمن رضي دينه وخلقه خالله، ومن لا تَجَنَّبه، فإن الطباع سَرّاقة، والصحبة مؤثرة في إصلاح الحال وإفساده.

قال: قال الغزالي: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخاللته تُزَهِّد في الدنيا؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع من حيث لا يدري اهـ.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:
«لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤمِناً، وَلا يَأْكُلْ طَعامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ»(٣).

وقال الشاعر:

أَنْـتَ في النَّـاسِ تُقـاسُ ... بِالَّـذي اخْـتَـرْتَ خَليلا
فَاصْـحَـبِ الأَخْـيَارَ تَعْـلُ ... وَتَـنَـلْ ذِكْـراً جَمِـيلا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، والحاكم (٤ / ١٧١)، وأحمد (٢ / ٣٠٣ و٣٣٤)، وغيرهم، وحسنه الألباني لغيره في «الصحيحة» (٢ / ٦٣٤).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٧ / ٤٩).

(٣) أخرجه الدارمي (٢ / ١٠٣)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وابن حبان (١ / ٣٨٣ - إحسان)، والحاكم (٤ / ١٢٨)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد (٣ / ٣٨)، وحسن إسناده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ٥٠١٨).

وقال غيره:

نافِسْ إذا نَافَسْتَ فِي حِكْمَةٍ آخِ إذا آخَيْتَ أَهْلَ التُّقى

ما خَيْرُ مَنْ لا يُرْتَجَى نَفْعُهُ يَوْماً وَلا يُؤمَنُ مِنْهُ الأذى

وفي «بهجة المجالس»[1]: قال الحسن البصري: انتقوا الإخوان والأصحاب والمجالس.

وكان يقال: الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء.

وقال ابن القيم[2]: الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع، وشغل الوقت، فهٰذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه؛ أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة، والتواصي بالحق والصبر، فهٰذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولٰكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تَزَيُّن بعضِهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذٰلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة؛ فالاجتماع والخلطة لقاح؛ إما للنفس الأمّارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح؛ فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهٰكذا الأرواح الطيبة، لقاحها من الملَك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيِّبات للطيِّبين، والطيِّبين للطيِّبات، وعكس ذٰلك.

---

(١) (١ / ٤٨).

(٢) «الفوائد» (ص ٦٨).

وفي «لطائف المعارف»[1]: قال أبو حازم: كل ما يشغلك عن الله؛ من أهل أو مال أو ولد؛ فهو عليك مشؤوم.

فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله، واليمن هو طاعة الله وتقواه، والعدوى التي تهلك من قاربها؛ هي المعاصي، فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك، وكذلك مخالطة أهل المعاصي، ومن يُحَسِّن المعصية ويزينها، ويدعو إليها من شياطين الإنس، وهم أضر من شياطين الجن.

وقال الشاعر:

فلا تَصْحَبْ أَخَا الجَهْـ ـلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أَرْدَى حَكِيماً حِينَ آخَاهُ
يُقاسُ المَرْءُ بِالمَرْ ءِ إذا ما المَرْءُ ماشَاهُ
وَلِلشَّيْءِ عَلَى الشَّيْ ءِ مَقَايِيسُ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى القَلْ بِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره؛ فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب، فيعم الناس؛ خصوصاً من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعين، فإذا كثر الخبث هلك الناس عموماً، وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها؛ يتعين البعد عنها، والهرب منها؛ خشية نزول العذاب.

قال محمد شومان: هذا آخر ما يسّره الله عز وجل من الكلام على العوائق التي تقف في طريق التائب الفارّ إلى الله تعالى، نسأله سبحانه النجاة منها بمنّه وكرمه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) (ص ٧٧) باختصار وتصرف يسير.

خاتمة

يتعرض التائب الفار إلى الله تعالى للفتور وضعف الهِمَّة؛ فيجد في نفسه مللًا وكسلًا، وتَطَلّعًا إلى ما تاب منه؛ فيضعف عن سيره إلى الله تعالى، ويكاد يرجع عن توبته، فيُؤمر العبد إذا أصابه ذٰلك؛ بالمسارعة إلى طلب الغوث من الله تعالى؛ فيرجوه ضارعاً متذللاً؛ أن لا يرفع عنه توفيقه، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين أبداً، وأن يحفظ عليه قلبه، وأن يعينه على دوام الفرار إليه تبارك وتعالى.

ويُؤمر بالتفكر في الجنة والنار، وأهوال القيامة، والموت والبلى، والقبور والجنائز، وأن يتفكر في قدر الدنيا وانقطاعها، وسرعة زوالها، ويكرر على قلبه مثل هٰذه الأمور؛ مما أثبتناه في هٰذا الكتاب؛ متدبراً ذٰلك، ملتزماً بالتقوى والصبر عليها، فسرعان ما يفتح الله عز وجل عليه، ويؤيده بالنصر على نفسه وهواه، وشيطانه ودنياه، فتعود إليه قوته، ويتجدد نشاطه؛ فيواصل فراره إلى مولاه عز وجل.

ويؤمر بالمواظبة على محاسبة النفس، ومراقبتها في الأعمال على الدوام، لا يغفل عن ذٰلك أبداً، فإن أول خطوة في الرجوع عن التوبة؛ هي إهمال محاسبة النفس ومراقبتها، فإن الصادق في فراره إلى الله تعالى؛ متى حاسب نفسه فوجد ذنباً؛ تاب منه، وسعى جاهداً في الخلاص من عواقبه، ومتى أهمل المحاسبة؛ فإنه سيغفل عن كثير من ذنوبه، وذٰلك بسبب كثرة الشواغل، وتنوّع

العوائق، فيتدرج في نقض توبته، ويقعد عن الفرار إلى ربه عز وجل شيئاً فشيئاً.

ويزيل فتور العبد، ويعينه على الاستمرار في فراره إلى مولاه الحق: تدبر آيات القرآن الكريم؛ فإن فيه الهداية التامة إلى الصراط المستقيم، وهو نور القلوب، ورُوح الأرواح.

وكذا تدبر كلام سيد المرسلين ﷺ؛ فإنه الوحي الثاني، والمبيّن للقرآن الكريم، وما من شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينه ﷺ(١).

ويعينه - أيضاً -: النظر في سيرته ﷺ؛ فهو أعلم الخلق بالله تعالى، وأخوفهم منه، وأسبقهم وأصدقهم فراراً إليه جل وعلا، وكل ما يظن أنه خير وقُربة إلى الله عز وجل، وليس على هديه - بأبي هو وأمي -؛ فهو شر وبدعة وطريق إلى النار.

ويعين على دوام الفرار إلى الله عز وجل: المحافظة على الأذكار النبوية الصحيحة، ومن أهمها؛ الأذكار الثابتة دُبر الصلوات المكتوبات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والاستيقاظ.

وعلى الذاكر أن يجتهد في معرفة معانيها والحضور فيها، فإن في ذلك حياة للقلب وقوة ونوراً؛ يُعين العبد على فراره إلى مولاه الحق جل وعلا.

ومن أعظم ما يخلص العبد من الفتور، ويعيد إليه نشاطه، ويرفع همته: مجالسة العلماء العاملين الصالحين؛ أهل التقوى والحذر من الله تعالى، وأهل المحافظة على الأوقات، وسماع الموعظة منهم، ورؤية ما هم فيه من النشاط

---

(١) كما قال ﷺ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ؛ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ». أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٤٧) عن أبي ذر، وصحح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» تحت الحديث رقم (١٨٠٣).

وعلو الهمة، والمسابقة إلى الخيرات، والمنافسة فيها.

وقيل لأحدهم: ما الذي حبب إليك الخلوة، وطرد عنك الفَتْرة؟ قال: وَثْبة الأكياس من فخ الدنيا.

وقيل لآخر: لم تخليت عن الدنيا؟ فقال: خوفاً والله من الآخرة أن تتخلّى عني.

فإذا رأى العبد همة المتقين، ونشاطهم فيما يرضي رب العالمين؛ قويت همته، وزال فتوره؛ فغدا كمن فُك من عقال.

وقد عزّ ـ والله ـ لقاء أهل المسابقة وعمّال الآخرة في هٰذا الزَّمان، فينبغي للعاقل النظر في سيرة القوم، ومطالعة أحوالهم، والتنقيب عن أخبارهم، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا معهم؛ في زمرة مَن أنعم عليهم: ﴿**مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً**﴾.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم تسليماً.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتب

محمد شومان

* * * * *

الفهرس

* * * * *